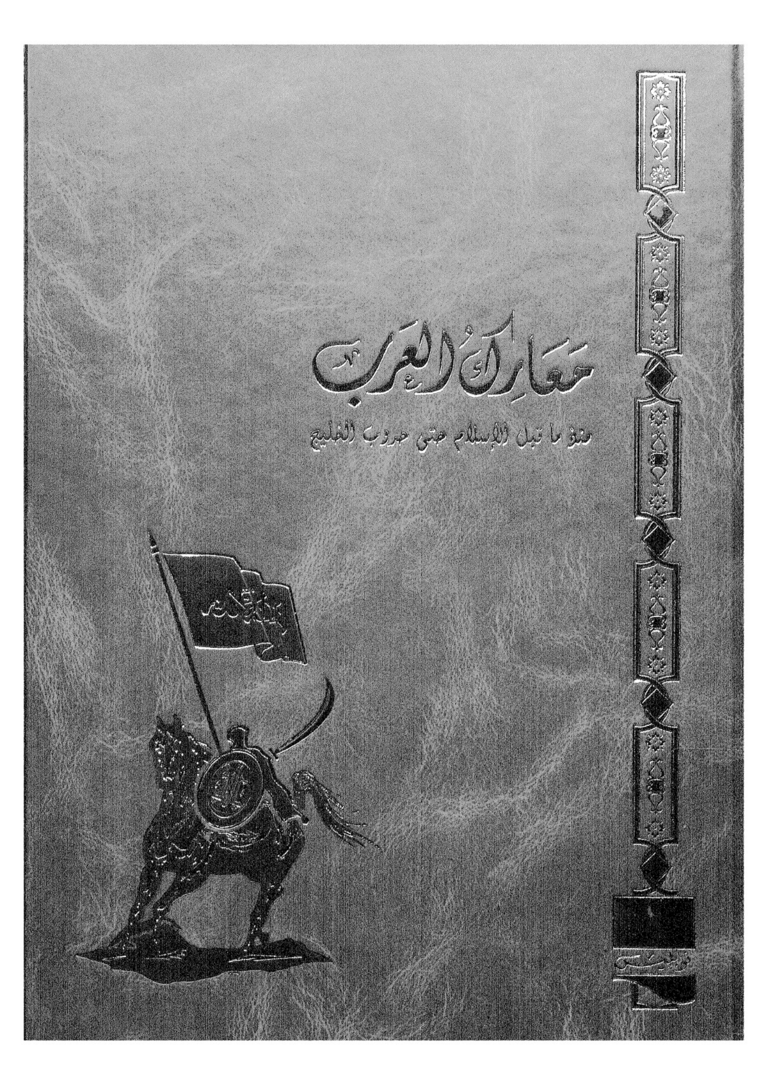

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب (13)

اسم الموسوعة	:	معارك العرب منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الخلافة العبّاسيّة (4) – العصر العبّاسي الرابع – عصر النفوذ السلجوقي (1)
المؤلّف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	176
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا
دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (13)

الخلافة العباسيّة (4) ـ العصر العبّاسي الرابع
عصر النفوذ السلجوقي (1)

NOBILIS
2007

المقدّمة

بدأ ظهور السلاجقة على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي تقاسمت خلاله العالم الإسلامي في الشرق خلافتان: الخلافة العباسية السنّية، والخلافة الفاطمية الشيعية. وكان قد أصاب الخلافتين ضعفٌ ووهنٌ نظراً إلى سيطرة بني بويه على الخلافة العباسية، ولازدياد نفوذ الوزراء في خلافة الحاكم بأمر الله في مصر.

وإذا عدنا إلى التاريخ، للاحظنا أنه، وبعد قيام الإسلام، اصطدم العرب المسلمون بالترك في منطقتين، الأولى ما وراء النهر، والثانية ما وراء أرمينيا. أما السلاجقة الأتراك، فيرجع أصلهم إلى بعض القبائل التركية المعروفة باسم «الغزّ»، الذين بدأوا في سهوب تركستان، ثمّ تحرّكوا إلى بلاد ما وراء النهر (نهر سيحون) حيث اعتنقوا الإسلام على المذهب السني.

وفي نهاية القرن الثامن ميلادي انفصل الغزّ عن إمبراطورية الخزر، وباتت لهم زعامتهم الخاصة التي دعاها العرب أحياناً باسم التركمان. وهذا اللفظ أصبح يعني اتحاد عدد من القبائل الغزية التي بلغ تعدادها الاثنتين والعشرين، وأبرزها قبيلة «قنف» التي برز فيها اسم مقاتل شهير هو دقّاق الذي ارتقى إلى مرتبة الزعامة.

في أواخر القرن الرابع للهجرة سار دقّاق مع قبيلته إلى ما وراء النهر، فاعتنق الإسلام وتدخّل في العمليات العسكرية التي أدت إلى تصفية الإمبراطورية السامانية، وحتى في الصراعات الداخلية في منطقة ما وراء النهر.

وبعد وفاة دقاق تسلّم الزعامة ابنه سلجوق، الذي وحّد التركمان وجمع شملهم فانتقلوا إلى بخارى وسمرقند في أواخر القرن الرابع للهجرة، ليساهموا في حماية الثغور الإسلامية الشرقية. وبعد سقوط الإمبراطورية السامانية بدأ السلاجقة ينتشرون غرباً نحو خراسان بزعامة طغرلبك حفيد سلجوق، الذي استولى على نيسابور السنة ٤٢٨هـ، مما نبّه السلطان مسعود بن سبكتكين التركي إلى الخطر الذي قد يشكّله السلاجقة على مملكته.

وسرعان ما تجسّد هذا الخطر إذ قام صراع بين طغرلبك ومسعود انتهى بهزيمة كبرى لهذا الأخير، مما ساهم في مدّ النفوذ السلجوقي إلى كامل خراسان بدءاً من السنة ٤٣٢هـ. وهكذا تمكّن طغرلبك من توسيع رقعة دولته على حساب الدولة المجاورة، فاستولى على الريّ السنة ٤٣٤هـ، وعلى أصبهان السنة ٤٤٢هـ التي اتخذها قاعدة لدولته الجديدة التي بدأ بتنظيمها. كما توسّع الزعماء السلاجقة الآخرون في بلاد فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى.

في هذه الأثناء كانت بغداد تعيش صراعاً بين وزير الخليفة ابن المسلمة وقائد الجيش البويهي، واسمه «ارسلان البساسيري»، وهو من أصل تركي. أمام هذه الواقع، وتحكّم آل بويه الشيعة بشؤون الخلافة العبّاسية السنّية، وحيال مؤامرات الخلافة الفاطمية الرامية إلى أخذ دور العباسيين من خلال مناصرة الدولة البويهية الشيعية لهم، اضطر الخليفة القائم بأمر الله وقائد جيشه البساسيري إلى الاستعانة بزعيم السلاجقة طغرلبك، أملاً في إنهاء الأوضاع الصعبة داخل الخلافة العباسية لاسيما الصراعات المذهبية. وقد رأى الخليفة أن اللجوء إلى السلاجقة السنّيين هي الطريقة الفضلى للتخلّص من البويهيين ومن الفاطميين الشيعة في آن واحد.

لبّى طغرلبك طلب النجدة من الخليفة وقائد جيشه، فوصل العراق ودخل بغداد السنة ٤٤٧هـ وسط مظاهر التعظيم والترحيب من قبل القواد والرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف والأمراء الذي خرجوا جميعاً لاستقباله. كما أمر الخليفة الخطباء بالخطبة لطغرلبك في مساجد بغداد.

شكّل دخول طغرلبك إلى بغداد بداية سقوط الدولة البويهية وقيام السلطنة السلجوقية مكانها في الوصاية على الخلافة العباسية وتدعيماً للتأثير السني في بغداد والعالم الإسلامي. ولتأكيد التعاون بين العباسيين والسلاجقة، تزوّج الخليفة من خديجة خاتون ارسلان بنت داود شقيق السلطان طغرلبك.

وفيما احتاج طغرلبك إلى بعض الوقت لتصفية الدولة البويهية وإقامة دولته، قام قائد جيش الخليفة البساسيري بثورة بعد تصدّع جبهة التركمان الداخلية وانسحابهم من العراق. وكانت ثورة البساسيري تهدف إلى القضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية.

ففي السنة ٤٥٠هـ دخل البساسيري إلى بغداد وقتل الوزير أبا القاسم علي بن المسلمة. وألقى القبض على الخليفة العباسي القائم بأمر الله وأودعه السجن، وأعلن انتهاء الخلافة العباسية وقيام الخلافة الفاطمية على أنقاضها.

لكن الفوضى عمّت بغداد ونهبت العامة قصر الخليفة ورفع البساسيري الألوية الفاطمية في المدينة وفي واسط والبصرة والمدن العراقية الأخرى. كما خَطَبَ للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، الذي أرسل له خمسمائة ألف دينار والبسة وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس وألوف السيوف والرماح وأقواس النشّاب. غير أنّ الأزمة الاقتصادية التي حلّت بالبلاد المصرية لم تسمح للمستنصر بالله بمتابعة إرسال المساعدات، وحتى النجدات، إلى البساسيري. لذلك، ما لبثت ثورته ان تداعت أمام تدخّل طغرلبك الذي عاد إلى بغداد بعد إنهائه ثورة أخيه إبراهيم ينال ضده.

ورغم بقاء البساسيري سيّداً لبغداد لمدّة سنة، فان ثورته انتهت بدخول السلاجقة إليها وإعادة الخليفة العباسي إلى عرشه، ومحاربة قوات البساسيري والتغلّب عليه وقتله السنة ٤٥١هـ. وانصرف طغرلبك بعد ذلك إلى إرساء قواعد الإمبراطورية السلجوقية.

نجمت عن سيطرة السلاجقة وقيام العهد الجديد نتائج مهمّة على صعيد العالم العربي والإسلامي، فكرياً وسياسياً وعسكرياً وعقائدياً. فقد كان التركمان متعصّبين للمذهب السنّي، ويعتمدون العنف والقمع

في سبيل إعادة الناس إلى السنّة وترك التشيّع. لكن السلطان السلجوقي كان قد حقق إنجازاً عسكرياً وسياسياً مهماً كان له تأثير بارز في العالم الإسلامي، ألا وهو توحيد العراق وإيران في بوتقة واحدة تدين بالزعامة الروحية للخليفة العباسي، وبالزعامة السياسية للسلطان السلجوقي.

وحاول السلطان أيضاً إعادة الشام ومصر إلى السيطرة العباسية. وباشر الإعداد لحملة كان سيرسلها لتحقيق هذا الهدف، فقابل الخليفة القائم بأمرالله الذي منحه لقب سلطان، وذلك لأول مرّة في تاريخ الإسلام. إلاّ أن طغرلبك توفي قبل أن يتمكّن من إتمام مشروعه الذي سيتابع تنفيذه خليفته وابن أخيه عضد الدولة السلطان ألب ارسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ).

كان أول عمل قام به ألب ارسلان هو إعادة إخضاع حلب وشمال بلاد الشام بهدف حماية ظهره من الخطر الفاطمي أثناء توجهه لمحاربة البيزنطيين في الشمال. ثمّ أرسل القائد «أتشز بن واق» الخوارزمي إلى جنوب بلاد الشام ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورهما.

هكذا توطّدت دعائم السلطنة السلجوقية في عهد ألب ارسلان الذي ركّز اهتمامه على الصراع ضد الإمبراطورية البيزنطية، فتمكّن من نقل هذا الصراع من حدود ثغور بلاد الشام إلى حدود آسيا الصغرى، وإيقاع دمار وخراب كبيرين في ممتلكاتها. وهذا ما دفع بالإمبراطور رومانوس دايجينوس إلى تنظيم حملات عديدة وقيادتها بنفسه ضد العالم الإسلامي، بهدف إحتلال بعض المواقع الحصينة داخل الأراضي الإسلامية. كما تمكّن السلطان ألب ارسلان من إيقاع أكبر هزيمة بالإمبراطورية البيزنطية في ملازكرد، ومن أسر إمبراطورها أرمانوس للمرّة الأولى في تاريخ الصراع الإسلامي - البيزنطي.

بعد ألب ارسلان مَلَكَ ابنه ملكشاه، الذي بلغت الإمبراطورية السلجوقية في عهده ذروة اتساعها وعظمتها، فامتدّت من فلسطين جنوباً إلى أفغانستان شرقاً وآسيا الصغرى غرباً. وكان ذلك بفضل الوزير نظام الملك الطوسي الذي اتخذ لقب «أتابك».

بعد وفاة ملكشاه تولّى الملك ابنه بركياروق، فوقع بينه وبين أعمامه وإخوته

صراع أدى إلى تفكك الدولة السلجوقية وعجزها عن صدّ هجمات الغزّ، إلى أن تلاشت أخيراً بوفاة آخر سلطان سلجوقي «سنجار» من دون عقب السنة ٥٥٢هـ.

ستكون السلطنة السلجوقية طيلة تاريخها محور موضوعنا في هذا الجزء من موسوعتنا العسكرية، مع التركيز في صورة خاصة على العمليات العسكرية التي جرت خلال هذه المرحلة، ليس فقط من قبل السلاطين السلاجقة، إنما أيضاً في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

الفصل الأول
الانتقال من سيطرة بني بويه إلى السيطرة السلجوقية

خاض السلاجقة صراعاً طويلاً قبل التمكّن من فرض سيطرتهم على بغداد وإزاحة الدولة البويهية والحلول مكانها. فالجدّ الأعلى دقّاق خاض صراعاً ضد ملك الترك بيغو الذي كان قد جمع عساكره وأراد الزحف إلى بلاد الإسلام فنهاه دقّاق ودخل في خلاف معه.

أما ابنه سلجوق، فقد قرّبه ملك الترك بسبب ذكائه، ولقّبه سباشي، ومعناه قائد الجيش. سار سلجوق من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين وأدام غزو الترك الكفّار، وكان ملكهم يأخذ الأتاوة من المسلمين، فطرد سلجوق عماله. وكان لسلجوق أولاد ثلاثة هم ارسلان وميكائيل وموسى، فغزا ميكائيل بعض بلاد الأتراك واستشهد في سبيل الله، وخلّف من الأولاد بيغو وطغرلبك ومحمداً وجفري بك وداود.

واقتتل داود مع ملك تركستان بفراخان لتخليص أخيه طغرلبك من أسره، وانهزم عسكر بفراخان وخُلّص طغرلبك من الأسر.

أما ارسلان بن سلجوق، فقد استولى مع أخي أيلك خان على بخارى. فلما هاجم السلطان يمين الدولة بخارى لجأ ارسلان مع جماعته إلى المفازة والرمل فاحتموا فيها قبل أن يتفرّقوا في نواحي خراسان. وانفصل منهم الفا رجل ساروا إلى أصبهان فجرت بينهم وبين صاحبها علاء الدولة بن كاكويه حرب.

وجرى قتال بين طغرلبك وأخيه داود من جهة وملك الترك علي تكين صاحب بخارى، هزم فيه هذا الأخير وقتل

من عسكره نحو ألف رجل. ثمّ عاد علي تكين وجمع جموعه وانزل بهم هزيمة نكراء قتل خلالها كثير من عساكر السلجوقية وأخذت أموالهم وأولادهم وسبيت نساؤهم وذراريهم، فانتقلوا إلى خراسان.

ثمّ جرى قتال بين الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين وبين طغرلبك وداود فانهزم السلجوقية وصودرت أموالهم. ولما اختلف جند مسعود على قسمة الغنائم، عاد السلاجقة وجمعوا جموعهم وقاتلوهم، فأوقعوا بهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً واستردوا ما أُخذ من أموالهم ورجالهم. أرسل السلطان مسعود يتهدّدهم قبل أن يعود ويخلع على طغرلبك الخلع النفيسة ويقطعه مدينة آمل الشط[1] ونسا ويقطع دهستان لداود وفراوة لبيغو، ويلقّب كلاً منهم بالدهقان. لم يقبل هؤلاء بذلك، لكنهم طاوعوا السلطان وسايروه قبل أن يستأنفوا الاغارة على ممالكه ويهزموا عساكره المرّة تلو المرة.

أخيراً، جهّز مسعود جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه سباشي لحرب السلاجقة فسار إلى مرو وهزم داوداً الذي عاد وجمع جنده وهاجم صاحب جوزجان فقتله وهزم جيشه، فقويت نفوس السلاجقة وزاد طمعهم وعاد داود إلى مرو. وراح سباشي يراوغ السلاجقة بسبب جبنه.

ثمّ اقتتل سباشي وداود على باب سرخس، فانهزم سباشي اقبح هزيمة أدت إلى ملك السلاجقة خراسان فدخلوا قصبات البلاد، ودخل طغرلبك نيسابور وفرّق نوابه في النواحي. وهذا ما اضطر مسعود إلى المسير إلى خراسان، فجمع العساكر وفرّق فيهم الأموال وسار من غزنة في جيوش بلغت مائة ألف فارس ومعه عدد كبير من الفيَلة. فقصد السنة تسع وعشرين وأربعمائة جوزجان فاختلها وصلب واليها الذي كان موالياً للسلاجقة، ثمّ سار إلى مرو الشاهجان.

ثمّ سار مسعود من مرو إلى هراة، فقصد داود مرو وحاصرها سبعة أشهر ثمّ ملكها. وكان مسعود، كلّما لاحق السلاجقة إلى مكان، ساروا إلى مكان آخر، حتى أدركهم الشتاء وكانوا في نيسابور. وانتظر مسعود إلى

---

(١) هي مدينة على نهر جيحون.

الصيف. ثمّ سار إلى مرو يطلب السلاجقة، فدخلوا البرية فدخلها وراءهم، فاصطدم جنده مع بعضه بسبب نقص الماء فهاجمهم داود فولوا منهزمين وأكثر القتل فيهم.(١)

وغنم السلاجقة من جند مسعود غنائم كثيرة قسّمها داود على جنده وآثرهم على نفسه.

وسار طغرلبك إلى نيسابور فملكها ونهبها عسكره، كما سار بيغو الى هراة فدخلها، وسار داود إلى بلخ فحاصرها. لكن مسعوداً أرسل لها النجدات فارتدّ السلاجقة عنها. ثمّ سار مسعود إلى هراة وطرد بيغو منها.(٢)

أرسل مسعود ابنه مودود في جيش كبير إلى بلخ لمحاربة داود الذي انتصر في القتال وملك المدينة. ثم سار مسعود إلى الهند حيث جرى خلاف وقتال بينه وبين أخيه محمد انتصر فيه الأخير وقُتل مسعود.(٣) لكن مودود عاد بجيشه من خراسان، فجرى قتال بينه وبين عمه محمد، انتصر فيه مودود وقتل محمد وأولاده، وسيطر مودود على غزنة وهراة واطاعته البلاد الخراسانية بأسرها ورسخت قدمه وثبت ملكه.

١ – ملك طغرلبك جرجان وطبرستان

عندما اختلف صاحب جرجان وطبرستان أنو شروان بن منوجهر بن قابوس ابن وشمكير مع قائد جيشه أبي كاليجار، رأى طغرلبك أن وضع البلاد يسمح له بالتدخّل لملكها، فقصد جرجان ومعه مرداويج بن بسو، فحاصرها. فلما اشتدّ الحصار فتح له المقيم بها، فدخلها وقرّر على أهلها مائة ألف دينار صلحاً. ثمّ عاد إلى نيسابور، وقصد مرداويج انو شروان بسارية، فاصطلح وإياه على أن يضمن انو شروان له ثلاثين ألف دينار. وأقيمت الخطبة لطغرلبك في البلاد كلّها.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٢٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٥٣.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٢٢.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٥٠.

٢ – ملك طغرلبك خوارزم وهمذان

كانت خوارزم تتبع مملكة محمود بن سبكتكين، ثمّ ملكها ابنه مسعود، وكان واليها إسماعيل بن التونتاش قد عصى على مسعود، فأرسل مسعود القائد شاهملك بن علي إليها فقاتل إسماعيل وهزمه وملك خوارزم.(١)

سار إسماعيل بن التونتاش إلى طغرلبك وداود السلجوقيين والتجأ إليهما طالباً المعونة منهما لاسترداد مملكته، فساروا معه إليها فالتقاهم شاهملك وهزمهم. عند ذلك سار طغرلبك إلى خوارزم فحاصرها واستولى عليها وهزم شاهملك الذي انتقل إلى دهستان ومنها إلى الري. قصده ابراهيم ينال شقيق طغرلبك، فسار إليه في أربعة آلاف فارس وأوقع به وأسره، وأخذ ما معه من أموال وذخائر. وكان ذلك السنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.(٢)

ولمّا استقرّ أمر إبراهيم ينال في الري سار منها وملك البلاد المجاورة لها، ثمّ انتقل إلى بروجرد فملكها، وإلى همذان وفيها أبو كاليجار كرشاشف علاء الدولة. حاصر إبراهيم ينال همذان فقاتله أهلها، لكنه احتلها وملكها قهراً ونهبها فيما لجأ واليها كرشاشف إلى قلعتها. ثمّ عاد إبراهيم ينال إلى الريّ التي كان طغرلبك قد وصل إليها.(٣)

٣ – خروج طغرلبك إلى الري وملكه بلد الجبل

في السنة أربع وثلاثين وأربعمائة خرج طغرلبك من خراسان إلى الري بعد فراغه من خوارزم وجرجان وطبرستان، وتسلّم الري من أخيه إبراهيم ينال كما تسلّم غيرها من بلد الجبل، وأخذ قلعة طبرك من مجد الدولة بن بويه. ثمّ سار إلى قزوين فامتنع

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٥٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٢٥ – ٨٢٦.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٥٧.

عليه أهلها، فزحف إليهم وحاصرهم ورماهم بالمنجنيق والسهام ومنعهم عن الوقوف على السور لحمايته. فلما رأى صاحباها كامرو ومرداويج بن بسو ذلك، خافا أن يملك المدينة عنوة، فمنعا أهلها عن القتال وصالحا طغرلبك على ثمانين ألف دينار.(١)

وأرسل طغرلبك إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالاً، ففعل وحمل إليه ما طلبه. ثمّ أرسل سرية إلى أصبهان وفيها منصور أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، فأغارت على أعمالها وعادت سالمة. بعد ذلك سار طغرلبك إلى همذان فملكها مجدداً من كرشاشف بن علاء الدولة.(٢) وسيّر جيشاً إلى كرمان(٣) بقيادة إبراهيم ينال فملك مواقع عدّة منها ونهبها. بلغ الخبر إلى الملك أبي كاليجار فسيّر وزيره مهذّب الدولة في جيش كبير إلى كرمان حيث وقعت معركة قوية بين جنده وجند إبراهيم ينال اشتدّ القتال خلالها بين الغزّ والديلم وثبت فيه الجانبان، قبل أن يهزم إبراهيم ينال ويدخل مع جيشه المفازة حيث لاحقهم الديلم.

٤ – وفاة السلطان جلال الدولة وملك أبي كاليجار

في السنة الخامسة والثلاثين وأربعمائة توفي السلطان جلال الدولة في بغداد بسبب مرض الم به، وكان ملكه ستّ عشرة سنة وأحد عشر شهراً. وبلغ موته إلى الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن بويه، فكاتب القواد والأجناد وأغراهم بالمال فمالوا إليه.

أما الملك العزيز بن جلال الدولة، فقد سار إلى إبراهيم ينال أخي طغرلبك، فلم ينصره ضد أبي كاليجار الذي تمّ له الملك في بغداد.(٤)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٥٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٥٨.

(٣) كرمان هي ولاية مشهورة فيها مدن وقرى واسعة بين فارس ومكران.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٠.

وفي السنة ست وثلاثين وأربعمائة نزل الأمير كرشاشف بن علاء الدولة من كنكور وقصد همذان فملكها، وأزاح عنها نواب السلطان طغرلبك، وخطب للملك أبي كاليجار وصار في طاعته.(١)

٥ – وصول إبراهيم ينال إلى همذان وبلد الجبل

في السنة سبع وثلاثين وأربعمائة أمر السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بالخروج إلى بلد الجبل واحتله، فسار إليه من مكران وقصد همذان التي فارقها صاحبها كرشاسف خوفاً، ودخلها ينال فملكها. ثمّ سار إلى الدينور فملكها، ومنها إلى قرميسين الذي قاتله أهلها وصدّوه فانصرف عنها. ثمّ عاد إليها بعد أن نظّم قواته فحاصرها، وعجز أهلها عن ردّه عنها فملكها عنوة وقتل جمعاً من الجند وأخذ أموال من سلم من القتل ونهب المدينة.(٢)

ثمّ سار ينال إلى الصيمرة(٣) فملكها ونهبها وأوقع بالأكراد المجاورين لها فانهزموا. كما انتقل إلى حلوان التي غادرها صاحبها أبو الشوك ولحق بقلعة السيروان، ووصل إليها ينال بعد أن غادرها أهلها وتفرّقوا في البلاد، فنهبها وأحرقها.(٤)

٦ – صلح الملك أبي كاليجار والسلطان طغرلبك

في السنة تسع وثلاثين وأربعمائة أرسل الملك أبو كاليجار إلى السلطان ركن الدين طغرلبك في الصلح، فأجابه إليه واصطلحا، وكتب طغرلبك إلى أخيه ينال بالتوقف عن غزو البلاد التي ليست في يده. واستقرّت الحال بينهما على أن يتزوّج

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٦٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٥٩.

(٣) مدينة بين ديار الجبل وديار خوزستان.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٧٠ – ٢٧١.

طغرلبك بابنة أبي كاليجار ويتزوّج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود، فتمّ ذلك.[١]

٧ - استيلاء إبراهيم ينال على قلعة كنكور وغيرها

سار إبراهيم ينال في السنة تسع وثلاثين وأربعمائة إلى قلعة كنكور التي كانت تتبع كرشاسف بن علاء الدولة. وبها عكبر بن فارس الذي امتنع بها إلى أن نفذت ذخائره، فراسل ينال على التسليم شرط أن يؤمّنه على من فيها من الرجال والأموال، فقبل ذلك وسلّمت القلعة إليه.[٢]

بلغ الخبر إلى بغداد أنّ ينالاً سيقصدها فارتاع الناس واجتمع الأمراء والقواد إلى الأمير منصور بن الملك أبي كاليجار طالبين منه المسير نحو ينال فرفض.

ثمّ نهب الغزّ[٣] الدسكرة وباجسري والهارونية وقصر سابور، وهلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير. منهم من قتل ومنهم من غرق ومنهم من مات بسبب البرد.

ثمّ سار ينال إلى السيروان فحاصر القلعة وضيّق على من فيها. وسيّر سرية نهَبت البلاد ووصلت إلى مسافة عشرة فراسخ من تكريت، ففرّ من تلك المناطق خلق كثير إلى بغداد، وذكروا ما لاقوا من ينال.

ومن المناطق التي احتلّها ينال قلعة سرماج وشهرزور وقلعة تيرانشاه.[٤]

٨ - موت الملك أبي كاليجار ومبايعة ابنه الملك الرحيم

في السنة أربعين وأربعمائة توفي الملك أبو كاليجار بسبب المرض، بعد أن كان قد شدّد

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٧٧.

(٣) عندما نتكلّم عن الغز يعني السلاجقة.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٧٨.

الحصار على البطيحة، وجرى قتال عنيف بينه وبين صاحبها أبي نصر بن الهيثم انتصر فيه الملك، فاستولى على المدينة التي قتل من أهلها عدد كبير وغرق عدد آخر وتفرّق الباقون في الآجام.(١)

ولما توفي أبو كاليجار، نهب الأتراك معسكره وانتقل ولده أبو منصور إلى مخيّم الوزير أبي منصور الذي أراد الأتراك نهبه فمنعهم الديلم. ثمّ سار الجميع إلى شيراز فملكها أبو منصور.(٢)

وصل خبر وفاة الملك أبي كاليجار إلى بغداد فبويع ابنه الملك الرحيم، الذي استقرّ ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة. ثمّ أرسل أخاه سعداً في جيش إلى شيراز فملكها وقبض على أخيه أبي منصور الذي كان قد سيطر عليها سابقاً.(٣)

والملك الرحيم هو آخر ملوك بني بويه.

٩ – القتال بين طغرلبك وأخيه ابراهيم ينال

في السنة إحدى وأربعين وأربعمائة وقع خلاف بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال. الذي رفض تسليم الأول مدينة همذان والقلاع التي في يده في بلد الجبل. وجمع كلّ من الأخوين جيشاً، وحصل بين الجيشين قتال شديد انهزم خلاله ينال، الذي عاد منهزماً. وسار طغرلبك في أثره فملك قلاعه وبلاده جميعها.(٤)

تحصّن إبراهيم ينال في قلعة سرماج، فحاصره طغرلبك فيها وكان معه مائة ألف من الجند، فملكها في أربعة أيام، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، وألقى القبض على أخيه. وأرسل طغرلبك إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده ففعل، وخطب له في ديار بكر. ثمّ راسل ملك الروم طغرلبك وأرسل له هدية قيّمة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦١.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٨٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٥.

وطلب منه المعاهدة فأجابه إلى ذلك بالإيجاب.[(١)]

وصف ابن الأثير تبادل المبادرات بين السلطان طغرلبك وملك الروم، فكتب:[(٢)]

«وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسأله أن يسعى في فداء ملك الأبخاز المقدّم ذكره، فأرسل نصرُ الدولة شيخ الإسلام أبا عبد الله ابن مروان في المعنى إلى السلطان طغرلبك فأطلقه بغير فداء فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم. وأرسل عوضه من الهدايا شيئاً كثيراً. وعمّروا مسجد القسطنطينية وأقاموا فيه الصّلاة والخطبة لطغرلبك ودان حينئذ النّاس كلّهم له، وعظم شأنه وتمكّن ملكه وثبت».

١٠ - ملك طغرلبك اصبهان

كان أبو منصور بن علاء الدولة غير ثابت في ولائه لطغرلبك الذي أضمر له سوءاً. فلما عاد من حملته ضدّ أخيه إبراهيم ينال، اتجه إلى أصبهان بقصد احتلالها من أبي منصور الذي تحصّن ببلده واحتمى بأسواره.[(٣)] حاصره طغرلبك طوال سنة كاملة، وكثرت الحروب بينهما، واستولى السلطان على سواد بلاده. وأرسل سرية من عسكره نحو فارس فبلغوا البيضاء وأغاروا على السواد هناك وعادوا غانمين.

وطال الحصار على أصبهان، وضاق الأمر بصاحبها وأهلها. الذين أرسلوا إلى طغرلبك يبذلون له المال والطاعة، فلم يجبهم إلى ذلك. ثمّ خضعوا له واستكانوا وسلّموا المدينة إليه، فنقل إليها من الري المال والذخائر والسلاح وجعلها داراً لمقرّه. وضرب قطعة من سورها وقال: إنما يحتاج إلى الأسوار من تضعف قوّته. فأما من حصنه عساكره وسيفه فلا حاجة له إليها.[(٤)]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٨٩.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٣.

التقييم:

من الملاحظ أن طغرلبك كان يقيم دولته تباعاً ويفتتح المدن والمناطق الواحدة بعد الأخرى، ويهادن ملك الروم، ويغير على فارس. وقد تمكّن من توحيد جبهته بعد قضائه على دولة أخيه إبراهيم منال. كما أنه كان يقصد من لم يكن قد والاه بعد ليحتل مدينته أو حصنه. وهذه الأعمال الكبيرة هي من مظاهر قيام الدول، كما قامت دولة السلاجقة وانهارت دولة بني بويه.

١١ – استيلاء ألب ارسلان على مدينة فسا

في السنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، سار الملك ألب ارسلان بن داود أخي طغرلبك من مدينة مرو بخراسان، وقصد بلاد فارس في المفازة، فلم يعلم به أحد ولا أُعلم عمه طغرلبك. وصل إلى مدينة فسا فدخلها وقتل فيها ألف رجل من الديلم وعدداً كبيراً من العامة، ونهب ما قَدْره مليار دينار، وأسر ثلاثة آلاف إنسان. ثمّ عاد إلى خراسان خوفاً من أن يسير طغرلبك إليه ويأخذ ما غنمه.[١]

١٢ – مهادنة طغرلبك للخليفة القائم بأمرالله

بعد أن كان الغزّ السلاجقة قد استولوا على خراسان من يد بني سبكتكين السنة ٤٣٢هـ، وأصبهان من يد ابن كاكويه السنة ٤٤٢هـ، وبلاد فارس السنة ٤٤٢هـ، بعث الخليفة القائم بأمرالله في السنة ٤٤٣هـ الخلع والالقاب وولاّه على كلّ ما غلب عليه.[٢]

في المقابل، بعث السلطان طغرلبك للخليفة رسل شكر على إحسانه إليه وعشرة آلاف دينار.[٣] كما بعث للوزير رئيس الرؤساء الفا دينار.[٤]

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٩٤ – ٢٩٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٥.
(٣) في ابن كثير: عشرين الف دينار.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٩.

وأنزل الخليفة رسل السلطان بباب المراتب وأمر باكرامهم. ولمّا جاء العيد أظهر اجناد بغداد الزينة الرائقة والخيول النفيسة بهدف إظهار قوتهم لرسل السلطان طغرلبك.[1]

وهكذا بدأ التقارب بين الخليفة العباسي وطغرلبك. هذا التقارب الذي سيؤدي إلى إبدال حماية آل بويه للخليفة بحماية السلاجقة، وذلك عند وفاة آخر سلطان بويهي «الملك الرحيم» من دون عقب.

١٣ – استيلاء الملك الرحيم على البصرة

في السنة أربع وأربعين وأربعمائة سيّر الملك الرحيم جيشاً بقيادة البساسيري إلى البصرة، وفيها أخوه أبو علي، فحاصروه، فأخرج جنوده في السفن لقتالهم، واقتتلوا أياماً عدّة. ثمّ انهزم البصريون في الماء واستولى جيش الملك الرحيم على دجلة والأنهار المتفرّعة منه.[2]

ثمّ سارت العساكر على البر نحو البصرة، فجاءهم رسل مضر وربيعة يطلبون الأمان فأجابوهم إلى ذلك. ثمّ بذلوا الأمان لكلّ أهل البصرة التي دخلها الملك الرحيم وبذل الإحسان لأهلها، وَوَرَدَ إليه رسل الديلم من خرزستان يبذلون له الطاعة. أما أخوه أبو علي فمضى إلى شط عثمان وحفر الخنادق وتحصّن، فقصده الملك الرحيم وقاتله وملك الموضع.[3]

قصد الأمير أبو علي السلطان طغرلبك في أصبهان فأكرمه وسلّم إليه قلعتين من أعماله. أما الملك الرحيم فسلّم البصرة إلى البساسيري ومضى إلى الأهواز.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٠٩.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٥ - ٩٤٦.

١٤ - حملة لطغرلبك على أطراف العراق

في السنة نفسها أرسل السلطان طغرلبك جيشاً بقيادة سعدي بن أبي الشوك إلى نواحي العراق فنهب البلاد حتى بلغ النعمانية.[١]

ثمّ سار سعدي إلى سامراء حيث هزم عمه مهلهلاً وأسره وعاد إلى حلوان. وهمّ الملك الرحيم بتجهيز الجند والسير إلى حلوان، لكنه لم يفعل بسبب الأزمات الداخلية في بغداد حيث ثار أهل الكرخ وأهل السنة، ودخلتها طوائف من الأتراك وعمّ الشر.[٢]

التقييم:

- نلاحظ من ظروف هذه الحملة أن السلطان طغرلبك وصل في حملته إلى العراق وأخذ ينتصر في صراعه للسيطرة على بغداد. أما الملك الرحيم، فقد أصبح وضعه حرجاً لجهة وجوب حفظ الأمن في بغداد العاصمة، وفي الوقت نفسه، الصراع ضد الأخطار الخارجية المتمثّلة بحملات السلاجقة على بلاد الخليفة.

وهذا أمر طبيعي تمشياً مع نظرية صعود الأمم وهبوطها، والتي تنصّ على أن الدولة عندما تصبح عاجزة عن حماية ممتلكاتها تبدأ بالانحدار، وصولاً إلى الانهيار الكامل وقيام دولة جديدة مكانها.

وهذا الوضع كان ينطبق خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي على الدولة البويهية التي كان تأثيرها يتراجع، والدولة السلجوقية الصاعدة.

١٥ - استيلاء طغرلبك على اذربيجان وغزو بلاد الروم

في السنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك إلى أذربيجان، فقصد تبريز فأطاعه صاحبها وخطب له. ثمّ سار إلى جنزه فأطاعه أيضاً صاحبها وخطب له، وكذلك سائر

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق ، جزء ١٢، ص ٧٠.

النواحي في تلك المنطقة.[1] بالمقابل أبقى طغرلبك أصحاب المناطق على مناطقهم مقابل أخذ رهائن منهم.

ثمّ غزا بلاد الروم فقصد ملازكرد[2] فحاصرها وضيّق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها. وبلغ طغرلبك في غزوته لبلاد الروم أرزن حيث نهب وقتل وسبى، قبل ان يعود إلى أذربيجان خلال فصل الشتاء من دون ان يملك ملازكرد.[3]

١٦ – بدء الوحشة بين الخليفة والبساسيري

في السنة نفسها حصلت وحشة بين الخليفة والبساسيري، وذلك بسبب قدوم القائدين أبي الغنائم وأبي سعد ابني المحلبان من خفاجة سراً، ومن دون معرفة البساسيري الذي أراد أخذهما فلم يتمكّن من ذلك.[4] واتهم البساسيري رئيس الرؤساء باستدعائهما فضيّق عليه. ثمّ سار إلى الأنبار حيث كان أبو الغنائم فأحرق ناحيتين منها. ونصب عليها المجانيق وهدم أحد أبراجها، ثمّ رماها بالنفط فأحرق أعتدة كان أهل المدينة قد أعدّوها لقتاله. ودخلها عنوة فأسر مائة رجل من بني خفاجة، منهم أبو الغنائم بن المحلبان.[5] وصلب البساسيري عدداً من بني خفاجة، فكان ذلك أول الوحشة بينه وبين الخليفة.[6]

١٧ – اتهام البساسيري بمكاتبة الخليفة الفاطمي

في السنة سبع وأربعين وأربعمائة ترسّخت الوحشة بين البساسيري ورئيس الرؤساء[1]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٨.

(٢) ملازكرد هي من أعمال ارمينيا – وهي مدينة حصينة.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣١٦.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٢.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٩.

(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣١٨.

الذي اتهمه بالاتصال بالخليفة المستنصر بالله. وعظمت الفتنة في الجانب الشرقي من بغداد بين العامة والبساسيري فتعرّضوا لبعض سفنه وكشفوا فيها عن جرار خمر فكسروها.[٢] ووضع رئيس الرؤساء العيون على البساسيري بإذن من دار الخلافة. وقام الأتراك البغداديون بقصد دور البساسيري ونهبها وإحراقها والتنكيل بنسائه وأهله ونوابه ونهب دوابه وكل ما يملكه في بغداد. وأرسل رئيس الرؤساء إلى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيري فأبعده عن بغداد.[٣]

وكانت هذه الحال من أعظم الأسباب التي ساهمت في ملك السلطان طغرلبك العراق.

١٨ - وصول طغرلبك إلى بغداد والخطبة له فيها

في السنة السابعة والأربعين وأربعمائة أرسل طغرلبك رسولاً إلى الخليفة مبالغاً في إظهار الطاعة والعبودية. كما أرسل رسولاً إلى الأتراك البغداديين يعدهم بالجميل والإحسان. ثمّ ان الملك الرحيم وصل بغداد وأرسل إلى الخليفة يظهر له العبودية، وانه قد سلم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه المصلحة والقواعد مع السلطان طغرلبك. أجيب الملك الرحيم بأن المصلحة تقضي بأن يرسل القادة الأتراك رسولاً إلى طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا إلى ذلك.[٤]

وتقدّم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك في جوامع بغداد، فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان. وأرسل طغرلبك يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له، فوصل إلى النهروان، وخرج الوزير رئيس الرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف والشهود وأعيان الدولة للقائه.

(١) رئيس الرؤساء هو الوزير علي بن الحسن بن المسلمة.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٣.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٠.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢٢.

وهكذا دخل طغرلبك بغداد ونزل بباب الشماسية.[١]

ثمّ حصل سوء تفاهم مع جند طغرلبك داخل بغداد، فجرى قتال بينهم وبين العامة قتل خلاله جمع كثير. وانهزمت العامة وجرى نهب للبلد بما فيها الرصافة ومدافن الخلفاء. واتهم طغرلبك الملك الرحيم بتدبير الفتنة فألقى القبض عليه وعلى من معه. وحُمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان.[٢] ثمّ توفي في السنة ٤٥٠هـ بعد أن نقله طغرلبك إلى قلعة الري.

وكان الخليفة قد طلب من السلطان إطلاق الملك الرحيم وأصحابه فأطلق طغرلبك بعضهم. توجّه كثيرون منهم إلى البساسيري الذي كثر جمعه وسار إلى رحبة مالك بالشام وكاتب المستنصر صاحب مصر بالدخول في طاعته.[٣] وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل، ومن الشرقي وصولاً إلى النهر.

وفي السنة ثماني وأربعين جلس أمير المؤمنين القائم بأمر الله جلوساً عاماً وحضر الأمراء السلاجقة أمامه. وقام عميد الملك وزير طغرلبك وفي يده دبوس، ثمّ خطب رئيس الرؤساء وعُقِدَ عقد الخليفة على ارسلان خاتون خديجة بنت داود أخي السلطان طغرلبك.[٤]

١٩ – مقتل البساسيري

وفي السنة خمسين وأربعماية أرسل السلطان السلجوقي جيشاً عليه القائد خمارتكين الطغرائي في ألفي فارس إلى الكوفة، أضيفت إليها سرايا بن منيع من خفاجة. وكانت مهمّة هذا الجيش محاربة البساسيري ومنعه عن التوجّه إلى الشام. وسار السلطان طغرلبك في اثرهم.[٥]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٢ – ٩٥٣.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٣.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢٧.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٦٦.

وقف البساسيري في جماعته، وحمل عليه الجيش فأسر من أصحابه عدداً، وضرب فرس البساسيري بنشابة، فأراد البساسيري قطع تجفافه[1] لتسهل عليه النجاة، فلم ينقطع. وسقط عن الفرس فدلّ عليه بعض الجرحى، فقتله جند السلطان وحملوا رأسه إلى دار الخلافة.[2]

وهكذا زال العائق الأخير أمام قيام السلطنة السلجوقية وحمايتها الخليفة العباسي وقيام العصر السلجوقي في العالم الإسلامي.

ملاحظة:

سنعمد في الفصول التالية إلى تفصيل المعارك التي جرت خلال الحقبة التي عولجت في هذا الفصل.

(١) تجفافه: آلة حربية من حديد أو غيرها يلبسها الفرس أو الإنسان.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٩٢.

الفصل الثاني
العمليات العسكرية في بداية السيطرة السلجوقية

في الفصل السابق حصرنا دراستنا بالعمليات التي أدت إلى انهيار الدولة البويهية في العراق وقيام السلطنة السلجوقية والمراحل التمهيدية لذلك.

أما هذا الفصل فقد خصص للعمليات العسكرية التي حصلت في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية خلال المرحلة المشار إليها، وذلك بهدف عدم إهمال أي عملية أو غزوة أو حملة قام بها المسلمون. وهذا ما آلينا على أنفسنا القيام به في موسوعتنا هذه.

هذا مع العلم أننا ذكرنا، وسنذكر، العمليات التي قادها القادة الأتراك أو الديلم أو الغزّ أو غيرهم من الشعوب الإسلامية غير العربية، وذلك بسبب مشاركة قوات عربية في هذه العمليات. فموسوعتنا هذه مخصصة لدراسة المعارك التي شارك فيها، أو نفّذها، العرب المسلمون، وليس فقط تلك التي قادها قادة عرب. فالعمليات التي نفّذها قادة غير عرب وشاركت فيها قوى عربية تعرضنا أيضاً لدراستها.

١ - الخلاف بين جلال الدولة وقرواش صاحب الموصل

في السنة إحدى وثلاثين وأربعمائة أرسل قرواش جيشاً لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، فجرت بينهما حرب شديدة. استنجد خميس بالملك جلال الدولة الذي أمر

قرواشاً بالكف عنه فلم يفعل، بل سار لحصاره بنفسه.[1]

أرسل جلال الدولة القائد التركي ارسلان البساسيري في السنة التالية على رأس جيش للقبض على نائب قرواش بالسنديانة. لكن جيش البساسيري استولى في طريقه على نوقٍ لبني عيسى فجرى قتال بين العرب والأتراك انهزم فيه الأتراك وأُسرت جماعة منهم. وهكذا عاد البساسيري من دون تنفيذ مهمته.

عند هذا الحدّ جمع جلال الدولة العساكر وسار إلى الأنبار، وهي لقرواش، فأغلقت أبوابها وقاتله أصحابها.

ثمّ اختلف قرواش مع بني عقيل، فراسل جلال الدولة وبذل له بذلاً صالحه به وعاد إلى طاعته، فتحالفا وعاد كلّ إلى مكانه.[2]

٢ – مودود بن مسعود يهاجم حصوناً من الهند

في السنة خمس وثلاثين وأربعمائة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا مدينة لها وور وحاصروها، فاستنجد مقدّم العساكر الإسلامية فيها بالسلطان مودود بن مسعود من آل سبكتكين، الذي جمع جيشاً وأرسله لنجدته. رفع الملوك الحصار فسارت العساكر الإسلامية إلى بلد أحدهما، ويُعرف بدو بالي هربابة، فانهزم واحتمى بإحدى قلاعه المنيعة في خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل.[3]

حاصرهم المسلمون وضيّقوا عليهم وأكثروا فيهم القتل. قَبل الهنود تسليم الحصن، فامتنع المسلمون عن إجابتهم واشترطوا تسليم كلّ الحصون، فقبل الهنود وغنم المسلمون أموالاً طائلة.

ثمّ قصدوا ولاية الملك الثاني، واسمه باس الريّ، فتقدّم إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٣٩ – ٩٤٠.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٤٦ – ٢٤٧.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٢٧.

انهزم في نهايته الهنود. وانجلت المعركة عن مقتل الملك ووقوع خمسة آلاف قتيل من جيشه، وأسر الباقين.

فلما رأى باقي الملوك ذلك أذعنوا بالطاعة وحملوا الأموال إلى المسلمين وطلبوا الأمان والاقرار على بلادهم، فاجيبوا إلى ذلك.[١]

التقييم:

أ - المناورة بالخطوط الداخلية:

في قتاله ضد ملوك الهند، أحسن مودود تطبيق استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية» التي يعتمدها القائد عندما يتواجه جيشه مع أعداء عدّة.

والمناورة بالخطوط الداخلية التي اعتمدها قادة عديدون خلال عصور التاريخ العسكري، وأبرزهم نابوليون بونابرت في حملاته ضد الأحلاف التي كانت تعقدها دول اوروبا ضده، تقضي بالقيام بالآتي:

* اختيار الخصم الأقوى وتوجيه الجهد الرئيسي ضده لوضعه خارج القتال.
* في الوقت نفسه، تكليف قوى محدودة بمراقبة الأخصام الباقين ومنعهم من القيام بعمليات هجومية.
* بعد القضاء على الخصم الأول، الانتقال تباعاً وبعظيم القوى لمهاجمة الأخصام الباقين بدءاً بالاقوى.

وهذا ما قام به مودود الذي نجح في مناوراته.

ب - أظهر القوة كي لا تضطر لاستعمالها:

بعد انتصاره على ملوك الهند الثلاثة أذعن باقي الملوك إلى المسلمين دون قتال. وهكذا طبّق المسلمون استراتيجية «أظهر القوة كي لا تضطر لاستعمالها».

فإظهار قوة جيش مودود ردعت ملوك الهند الباقين عن التصدي للحملة الإسلامية على بلاد الهند.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٦٤.

٣ – الحرب بين الملك أبي كاليجار[١] وأبي منصور ابن علاء الدولة

في السنة خمس وثلاثين وأربعمائة خرج صاحب اصبهان أبو منصور بن علاء الدولة ابن كاكويه على عهد الملك أبي كاليجار، وسيّر جنداً إلى نواحي كرمان فملكوا منها حصنين وغنموا ما فيهما.[٢]

جهز الملك أبو كاليجار جيشاً وسيّره إلى «ابرقوه» فحاصرها وملكها، فانزعج أبو منصور وجهّز جيشاً كبيراً سيّره إليهم، فسمع الملك بذلك، فسيّر جيشاً ثانياً مدداً لجيشه الأول. والتقت الجيوش فاقتتلوا وصبروا، ثمّ انهزم جيش أصبهان وأسر قائده، واستردّ نواب أبي كاليجار ما كانوا قد فقدوه من كرمان.[٣]

وفي السنة نفسها قصد الملك أبو كاليجار همذان فملكها، وأزاح عنها نواب السلطان طغرلبك. وفيها أمر ببناء سور مدينة شيراز، فبني وأُحكم بناؤه، وكان طوله اثني عشر ألف ذراع، وعرضه ثماني أذرع، وله أحد عشر باباً.[٤]

٤ – الأصفر التغلبي يغزو بلاد الروم

في السنة تسع وثلاثين وأربعمائة ظهر رجل يقال له الأصفر التغلبي وادّعى أنه من المذكورين في الكتب، واستغوى خلقاً غزا بهم نواحي الروم فظفر وغنم. ثمّ عاود الغزو في عدد أكبر ودخل مناطق الروم وأوغل وغنم أضعاف ما غنمه سابقاً.[٥]

---

(١) أبو كاليجار هو خليفة الملك جلال الدولة من الأسرة البويهية.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٦٤ – ٢٦٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦١.

وتسامع الناس به فقصدوه، وكثر جمعه واشتدّت شوكته وثقلت وطأته على الروم الذين كانوا قد عقدوا هدنة مع نصر الدولة ابن مروان. نقل ابن الأثير نهاية الرواية، فكتب:[1]

«أرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان يقول له إنّك عالم بما بيننا من الموادعة وقد فعل هذا الرجل هذه الأفاعيل، فإن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرّفنا لندبر أمرنا بحسبه. واتفق في ذلك الوقت أن وصل رسول من الأصفر إلى نصر الدولة أيضاً ينكر عليه ترك الغزو والميل إلى الدّعة، فساءه ذلك أيضاً واستدعى قوماً من بني نُمير وقال لهم إنّ هذا الرجل قد أثار الرّوم علينا ولا قدرة لنا عليهم. وبذل لهم بذلاً على الفتك به، فساروا إليه فقرّبهم ولازموه. فركب يوماً غير متحرّز فأبعد وهم معه فعطفوا عليه وأخذوه وحملوه إلى نصر الدولة بن مروان فاعتقله وتلافى أمر الروم».

التقييم:

- تدخّل ملك عربي لحماية مملكة الروم من غزوات قائد عربي آخر كان قد نجح في بث الرعب في قلوب الروم.

وهذا الأمر تكرّر في معظم العهود العربية، وخاصة زمن الحروب الصليبية، حين كانت التحالفات تحصل بين أحد ملوك الفرنجة وأحد القادة العرب المسلمين ضد ملك فرنجي آخر أو قائد عربي آخر.

وحتى في العصور الحديثة، ما زال ذلك يحصل حين تهادن دولة عدوّها، فيما مقاومتها الشعبية ترفض هذه الهدنة.

٥ - محاصرة العساكر المصرية مدينة حلب

في السنة أربعين وأربعمائة أرسل جيش مصري كبير إلى حلب وحاصرها، وفيها معزّ الدولة الذي جمع جمعاً كبيراً بلغ خمسة آلاف فارس وراجل وخرج إلى المصريين فقاتلهم قتالاً شديداً صبر فيه لهم إلى الليل،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٧٩.

ثمّ دخل المدينة. فلما كان الغد خرج أيضاً فاقتتلوا إلى آخر النهار، وكذلك في اليوم الثالث. فلما رأى المصريون شدّة مقاومة المدينة رحلوا عن حلب وعن بلاد الشام.(١)

٦ – القتال بين قرواش بن المقلد وأخيه أبي كامل

في السنة أربعين وأربعمائة بدأت الوحشة بين معتمد الدولة قرواش بن المقلد وأخيه زعيم الدولة أبي كامل، وانضمّ إلى قرواش ابن أخيه قريش بن بدران وجمع جمعاً وقاتل عمه أبا كامل، فظفر به وانهزم أبو كامل. ثمّ جمع كلّ من الفريقين جمعاً لمحاربة الآخر، وسار قرواش في جيشه، بعد أن انضمّ إليه سليمان بن نصر الدولة بن مروان وغيره من الأكراد، وساروا إلى معلثايا فاحتلّوا المدينة وأخربوها ونهبوها. ثمّ نزلوا في المغيثة وجاء أبو كامل مع جيشه من العرب وآل المسيب فنزلوا في مرج بابنثيا وبين الجيشين نحو فرسخ، فاقتتلوا يوم السبت وافترقوا من غير ظفر. ثمّ اقتتلوا يوم الأحد فغادر قرواش جمع من العرب كانوا معه والتحقوا بأخيه، فقوي هذا الأخير.(٢)

ثمّ جرى صلح بين الجيشين وانتهت الحرب بينهما.

٧ – القتال بين البساسيري وبني عقيل

في السنة نفسها سارت سرية من بني عقيل إلى بلد العجم من أعمال العراق فنهبوها وأخذوا الكثير من الأموال. ولما كانت تلك المناطق في إقطاع البساسيري، سار هذا الأخير من بغداد إليهم، فالتقى بهم، وعليهم زعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، فاقتتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه الفريقان بلاءً حسناً، وقُتل من الفريقين جماعة كبيرة.(٣)

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٨٧.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٦.

٨ – القتال بين نور الدولة وجند واسط

في السنة نفسها أيضاً وقع قتال عنيف بين نور الدولة دبيس بن مزيد وأتراك واسط. وسبب ذلك ان الملك الرحيم أقطع نور الدولة. حماية نهر الصّلة ونهر الفضل، وهما من أقطاع الواسطيين الذين سخطوا واجتمعوا وساروا إلى نور الدولة ليقاتلوه وأرسلوا يهددونه. أرسل نور الدولة سرية من عسكره لاعتراض جند واسط نصبت كميناً لهم. فلما التقوا استجرّهم العرب حتى جاوزوا الكمين الذي خرج عليهم وأوقع بهم وقتل منهم جماعة كبيرة وأسر جماعة أخرى وجرح مثلهم. وهكذا وقعت الهزيمة على أهل واسط وغنم نور الدولة أموالهم ودوابهم.[١]

٩ – استيلاء البساسيري على الأنبار

وفي تلك السنة أساء قرواش بن مقلد السيرة في الانبار ومدّ يده إلى أموال أهلها الذين أرسلوا جماعة منهم إلى البساسيري طالبين إيفاد جيش يسلّمون إليه الأنبار.[٢]

أجابهم البساسيري إلى ذلك وسيّر معهم جيشاً تسلّم الأنبار. ثمّ لحقهم البساسيري وأحسن إلى أهلها وعدل فيهم.[٣]

١٠ – انهزام الملك الرحيم من عسكر فارس

وفي السنة عينها عاد الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرز. فلما وصل إلى وادي الملح لقيه جيش من فارس فاقتتلوا قتالاً شديداً، فغدر بالملك الرحيم بعض عسكره، فانهزم هو وجنده، ووصل إلى بصنا[٤]، وسار

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٨٩ – ٢٩٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٦.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٨.

(٤) بصنا: مدينة صغيرة بنواحي الأهواز.

منها إلى واسط، فيما اتجه جيش فارس إلى الأهواز فملكها.(١)

التقييم:

من العمليات المذكورة نلاحظ أمرين:

الأمر الأول: إقامة كمين لأهل واسط ووقوعهم فيه وهزيمتهم. فالعرب المسلمون عرفوا تقنية إقامة الكمائن، لاسيما في بلاد ما بين النهرين حيث تكثر الأشجار ومجاري المياه والوديان والمستنقعات. واستراتيجية إقامة الكمائن بقيت سائدة في الحروب العربية الإسلامية، وهي ما تزال قائمة في الجيوش الحديثة الحالية.

الأمر الثاني: إن بعضاً من جند الملك الرحيم انحاز خلال المعركة إلى خصمه الذي ربح المعركة. وهذا الأمر شائع جداً منذ العهود العربية الإسلامية. فقد رأينا في الجزء المخصص في هذه الموسوعة للاندلس أنه، وعند دخول طارق بن زياد إليها، وخلال المعركة الأولى التي تواجه فيها مع ملك القوط رودريك، انحاز إلى جانبه أولاد الملك غيطشة القوطيّون، والذين كان رودريك قد قام بانقلاب ضد والدهم وقتله. وهكذا ربح طارق المعركة التي دعيت «معركة وادي لكّة».

وفي ماض غير بعيد، وفي التاريخ العسكري اللبناني، وخلال المعركة بين الأتراك العثمانيين والمماليك السنة ١٥١٦، انحاز الأمراء اللبنانيون، وعلى رأسهم الأمير فخر الدين المعني الأول، إلى جانب العثمانيين الذين ربحوا أيضاً المعركة.

١١ - دخول العرب إلى افريقيا

كان المعزّ بن باديس قد قطع الخطبة للمستنصر الفاطمي السنة أربعين وأربعمائة وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله، فكتب إليه المستنصر يتهدده. وكان المستنصر قد استوزر الحسن بن علي اليازوري، وكان حاقداً على المعزّ الذي سبق واهانه في كتابته إليه. لذلك أغرى اليازوري المستنصر بحرب المعزّ، وأصلح ما بين قبيلتي

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩١.

زغبة ورياح وأعطاهما أموالاً وأمرهما بقصد بلاد القيروان وفتحها، وملّكهم كلّ ما يفتتحونه، ووعدهم بالمدد.(١)

سار العرب إلى برقة فوجدوها خالية، لأن المعزّ كان قد أباد أهلها من قبيلة زناته، فاستوطنوها. واحتقر المعزّ شأنهم، واشترى العبيد واستكثر منهم حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفاً.

وزحف بنو زغبة إلى طرابلس فملكوها السنة ست وأربعين وأربعمائة. وتابعت قبائل رياح والاسبج وعدي الزحف في افريقيا، وقطعوا الطرق وعاثوا في الأرض فساداً وشنوا الغارات وأتلفوا الزرع وحاصروا المدن، فحلّ في إفريقيا بلاء لم ينزل بها مثله سابقاً.(٢)

حيال ذلك، جمع المعزّ عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس، ومثلهم رجّالة، وسار حتى أتى «جندران»، وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام. وكان عدد جند العرب ثلاثة آلاف فارس، فلما رأوا عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ هالهم ذلك. ولكنّهم قرروا المواجهة، فاحتدم القتال واشتدّت الحرب، فقرّرت صنهاجة الهزيمة وترك المعزّ مع العبيد حتى يقتل أكثرهم، وعند ذلك يرجعون على العرب.(٣)

ثبت المعزّ مع العبيد الذين كثر القتل فيهم، فهزم المعز ودخل القيروان. ثمّ عاد وجمع سبعة وعشرين الف فارس وسار إلى العرب الذين ثبتوا في القتال فانهزمت صنهاجة وزناته، وكان العرب في سبعة آلاف فارس. لكن المعزّ ثبت مع عبيده ثباتاً عظيماً، قبل أن ينهزم ويعود إلى المنصورية. وأحصي من قتل من صنهاجة فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة.(٤)

ونزل العرب في مصلّى القيروان ووقعت الحرب، فأباح لهم المعزّ دخول القيروان للميرة، فاستطالت عليهم العامة فجرى قتال معها وقتلوا منها خلقاً كثيراً.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦٨.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٦.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٢.

وفي السنة ست وأربعين وأربعمائة حاصر العرب القيروان بعدما ملكوا مدينة باجة، وشرعوا في هدم الحصون والقصور وقطع البساتين وتخريب الأقنية الزراعية. أمر المعزّ الناس بالانتقال إلى مدينة المهدية التي انتقل إليها بنفسه السنة تسع وأربعين وأربعماية.(١)

وفي السنة خمسين وأربعمائة خرج العرب لقتال زناته، فجرى قتال عنيف هزمت فيه زناته وقتل منها الكثير. وفي السنة ثلاث وخمسين وأربعمائة دخل العرب مدينة «تقيوس» للتسوّق، فقتل أحدهم رجلاً متقدّماً من أهلها، فثار أهل المدينة على العرب وقتلوا منهم مائتين وخمسين رجلاً.(٢)

١٢ – سيطرة الملك الرحيم على رامهرمز واصطخر وشيراز

في السنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة سار الأمير أبو منصور صاحب فارس، وهزارسب بن بنكير ومنصور بن الحسين الأسدي ومن معهما من الديلم والأتراك نحو تستر، فسبقهم إليها الملك الرحيم، ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وحال بينهم وبينها. والتقت طلائع الجيشين فجرى قتال بينهما كان النصر فيه لطليعة الملك الرحيم.(٣)

ثمّ سيّر الملك الرحيم فرقة من جيشه إلى رامهرمز وفيها أصحاب هزارسب وقد أفسدوا فيها. فلما وصل جيش الرحيم خرج هؤلاء إلى قتاله، فجرى قتال عنيف كثر فيه القتلى والجرحى. ثمّ انهزم جند هزارسب ودخلوا المدينة التي حاصرها جيش الملك الرحيم ودخلها عنوة ونهبها وأسر جماعة من الجند الذين فيها.(٤)

ثمّ سيّر الملك الرحيم أخاه الأمير أبا سعد في جيش إلى بلاد فارس بدعوة من المقيم في قلعة اصطخر أبي نصر بن خسرو. وبوصول الجيش إلى مشارف بلاد فارس أتاه مدد كثير

(١) المرجع نفسه.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٤.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٩.

من عساكرها من الديلم والترك والعرب والأكراد، فدخل اصطخر حيث حمل إليه صاحبها الإقامات والخلع وغيرها.[١]

ثمّ سار الجميع إلى شيراز فملكها الملك الرحيم. لكن الأمير أبا منصور وهزارسب ومنصور بن الحسين ساروا إليها لإجلاء جند الرحيم عنها، فلقيهم شقيقه أبو سعد في جيشه وقاتلهم وهزمهم. ثمّ تكررت الحروب بينهم، وكان المنتصر دائماً جيش الأمير أبي سعد الذي قتل من أعدائه أعداداً كبيرة، واستأمن إليه جمع كبير منهم في الأهواز حيث أعيدت الخطبة للملك الرحيم.[٢]

التقييم:

أ - نلاحظ في هذا المجال أن الملك الرحيم، ورغم أنه كان آخر ملوك سلالةآل بويه، أعاد الهيبة إلى الدولة البويهية من خلال الحروب التي خاضها ضد الخارجين عن سلطته.

إلاّ أن المعروف أيضاً أن السلطنة البويهية، ورغم انتصارات الملك الرحيم العسكرية على أعدائه الداخليين، كانت خلال هذه المرحلة تواجه قوّة جديدة وفتية، لذلك لم تصمد أمام المدّ العسكري الآتي من بلاد ما وراء النهر مع السلاجقة الأتراك.

ب - وهكذا عندما هزم الملك الرحيم الحلفاء الثلاثة المذكورين، اضطرّ هؤلاء إلى مراسلة سلطان السلاجقة طغرلبك وبذل الطاعة له وطلب المساعدة منه، فأرسل إليهم جنداً كثيراً بعد أن كان قد ملك اصبهان.

أما الملك الرحيم فكان قد غادره القائد البساسيرس ونور الدولة دبيس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي معه الديلم الاهوازية وطائفة قليلة من الأتراك البغداديين.

ووقعت الحرب في الأهواز بين الجانبين وبقي القتال شديداً طيلة يومين هزم في نهايته الملك الرحيم فسار إلى واسط، فيما نهبت الأهواز وأُحرقت فيها محال عدة.[٣]

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

١٣ – عصيان بني قرّة على الخليفة الفاطمي

في السنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة عصى بنو قرة على المستنصر بالله الفاطمي، لأنه جعل عليهم رجلاً منهم إسمه «المقرب» لا يريدونه، فأقاموا بالجيزة مقابل مصر. أرسل المستنصر إليهم جيشاً قاتلهم قتالاً شديداً، لكنه هُزم وكثر فيه القتل.

عظم الأمر على المستنصر فجمع قبائل العرب من طيء وكلب وغيرهما وسيّرهم في أثر بني قرة، فادركوهم بالجيزة حيث نشب القتال، وكان شديداً وكثر خلاله القتلى من بني قرة الذين انهزموا. وعاد العسكر إلى مصر وتركوا في مقابل بني قرة طائفة منهم لتردّ المنهزمين إن هم أرادوا التعرّض لأمن البلاد.(١)

التقييم:

أ – نلاحظ من خلال هذا القتال أن الخليفة استعمل قبائل عربية لمقاتلة القبيلة العربية العاصية. فمن المعروف ان القبائل العربية كانت تقاتل مجتمعة، ويشارك في القتال كلّ الرجال القادرين على حمل السلاح. فكلّ بدوي عربي هو مقاتل ويستعمل الرمح والسيف والنشاب. وتميّز العرب بفرسانهم الذين كانوا سريعي التحرّك ويلزمهم القليل من الزاد والماء، وأحياناً يتعيّشون على المنطقة التي يحاربون فيها.

ب – إن استعمال القبائل العربية لمحاربة بعضها البعض جعل العصبية العربية القبلية، التي كانت منتشرة في الجاهلية، تبقى متأججة في النفوس خلال العصور الإسلامية. وقد أدّت هذه العصبية أحياناً إلى حروب بين القبائل العربية، حتى في المغرب والأندلس، ولاسيما الصراع القيسي – اليمني الذي تسبّب في الأندلس بثورات وخلافات عميقة.

١٤ – الفتنة بين السنّة والشيعة في بغداد

في السنة خمس وأربعين وأربعمائة تجددت الفتنة بين أهل السنّة وأهل الشيعة

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠٢ – ٣٠٣.

داخل بغداد، وعظم الشر واختلطت بالفريقين جماعات من الأتراك.[١] فلما اشتدّ الأمر اجتمع القواد واتفقوا على ضبط الأمن في المدينة، فأخذوا من الكرخ رجلاً شيعياً وقتلوه فتبعهم العامة من أهل الكرخ وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم قتال شديد. وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ فاحترق كثير منها. ثمّ صلحت الحال بعد تدخّل الخليفة، وعاد الناس إلى الكرخ بعد أن استقرّت القاعدة في الديوان بكف الأتراك أيديهم عنهم.[٢]

١٥ – محاربة بني خفاجة وهزيمتهم

في السنة ست وأربعين وأربعمائة قصد بنو خفاجة أعمال نور الدولة دبيس بن مزيد ونهبوا وفتكوا في أهل تلك الأعمال، وكان نور الدولة شرقي الفرات وخفاجة غربه.[٣] استنجد نور الدولة بالبساسيري الذي سار إليه، ثمّ عبر الفرات وجرى قتال بين جيشه وبين خفاجة الذين انهزموا وغادروا أعمال نور الدولة. لم يلاحقهم البساسيري وعاد عنهم، فعادوا إلى الفساد.[٤]

عاد البساسيري ولاحقهم فدخلوا البر، فتبعهم وأدركهم في حصن خفان[٥] ففتحه وخربه.

ودخل البساسيري بغداد ومعه خمسة وعشرون رجلاً من خفاجة قد شدّهم بالحبال إلى الجمال، بعد أن قتل منهم جماعة وصلب جماعة أخرى.

١٦ – استيلاء الملك الرحيم على شيراز

في السنة سبع وأربعين وأربعماية للهجرة سار قائد كبير من الديلم يدعى «فولاذ»، هو

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣١٢.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٢.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣١٦.
(٥) هو بناء من آجر وكلس، وقيل إنه كان علماً تهتدي به السفن.

صاحب قلعة اصطخر، إلى شيزار فدخلها وأخرج منها شقيق الملك الرحيم الأمير أبا منصور. ثمّ قطع فولاذ خطبة السلطان طغرلبك وخطب للملك الرحيم. لكن هذا الأخير علم بأنه يخدعه ويظهر له غير ما يُبطن، فبعث إليه أخويه منصوراً وأبا سعد مع جيش كبير قصد شيراز وحاصرها.[1]

طال الحصار حتى نفذ الغذاء من المدينة وبلغ ثمن سبعة أرطال من الحنطة ديناراً، فمات بعض أهلها جوعاً. وهكذا تعذّر على فولاذ المقام في المدينة فخرج منها هارباً مع من في صحبته من الديلم إلى قلعة اصطخر. ودخل شقيقا الملك الرحيم إلى المدينة وملكاها.[2]

التقييم:

- كانت السيطرة على شيراز باسم الملك الرحيم، آخر الملوك البويهيين، المظهر الأخير من مظاهر القوّة للدولة البويهية المنهارة والتي كانت قد أصبحت في أواخر مراحل تاريخها.

١٧ - القتال على واسط

في السنة ثمان وأربعين وأربعمائة للهجرة ولّي أبو الغنائم بن المجليان[3] واسطاً وأعمالها، فصادر أعيانها وأعمالها، وجنّد جماعة تقوّى بهم من أهل البطيحة، وخطب للمستنصر الفاطمي. ثمّ حفر على الجانب الغربي من المدينة خندقاً بنى عليه سوراً، وأخذ ضريبة من سفن للخليفة.[4]

سار عميد العراق أبو نصر إلى حربه فوقع قتال ضار انهزم في نتيجته ابن المجلبان وأُسر من أصحابه عدد كبير، ووصل أبو نصر إلى السور فقاتلته العامة. ثمّ افتتح المدينة وأمر أهلها بطمر الخندق وتخريب السور، ففعلوا، قبل أن يتوجّه إلى بغداد.[5]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢٠.

(٣) في ابن الأثير: المحلبان.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٤

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣١.

ولمّا قارب عميد العراق بغداد قام ابن فسانجس في واسط وأعاد الخطبة للفاطميين، وأمر أهل كلّ محلة بعمارة ما يليهم من السور.

تجاه هذا التطوّر طلب صاحب واسط منصور بن الحسين مدداً من بغداد، فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء يأمرانه بأن يقصد واسطاً مع ابن الهيثم ويحاصراها. فأقبلا إليها في من معهما وحاصراها من البر والماء السنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، واشتدّ الحصار على المدينة.(١)

ثمّ خرج ابن فسانجس ليقاتل خارج السور فجرى قتال عنيف هزم فيه هذا الأخير وقتلت جماعة من أصحابه وانهزم الباقون إلى سور المدينة، واستأمنت جماعة من الواسطيين إلى منصور بن الحسين فأمّنهم. وفرّ ابن فسانجس من المدينة، فلاحقته سرية من الجند أدركته قرب النيل فأُسر مع أهله وحمل إلى بغداد.(٢)

التقييم:

أ - يلاحظ أن القوة التي كانت تحاصر واسطاً لم تكن تملك معدات الحصار، لذلك لم تجتح المدينة، إنما قامت بحصارها في انتظار نفاذ الطعام والماء في داخلها.

ب - لكن ما يحيّر المراقب العسكري هو أن ابن الجلبان وابن فسانجس خرجا من المدينة، كلّ بدوره، وقاتلا الجيوش التي كانت تحاصرها خارج السور، مع علمهما بالتفوّق العسكري للذين يحاصرونها. حتى أن عميد العراق، وبعد الانتصار على ابن الجلبان واقترابه من السور، قاتلته العامة قبل أن يفتح المدينة.

ج - إن خروج القائدين المذكورين إلى خارج السور للقتال يعدّ خطأً استراتيجياً ارتكباه فهزما، لاسيما أنهما خرجا للقتال قبل أن ينفذ الطعام والماء داخل المدينة المحاصرة.

كما لاحظنا أن هذا الخطأ ارتكب مرات عدّة في المعارك للسيطرة على المدن خلال حقبة دراستنا العسكرية في هذه الموسوعة.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٤ - ٩٥٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣١.

١٨ – القتال بين البساسيري وقطلمش السلجوقي وتدخّل طغرلبك

في السنة ثمان وأربعين وأربعمائة للهجرة قصد البساسيري الموصل في جيش كبير، ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد، فخرج إليه قطلمش السلجوقي ومعه صاحب الموصل قريش بن بدران إلى سنجار. تواجه الجيشان فاقتتلا واشتدّ القتال بينهما فهُزم قطلمش وقريش وقتل من أصحابهما الكثير وجرح قريش.(١)

وعزم السلطان طغرلبك على المسير إلى الموصل لمناجزة البساسيري، فنهاه الخليفة عن ذلك لضيق الحال وغلاء الأسعار، فلم يقبل، وسار بجيشه إليها بجحافل عظيمة، ومعه الفيلة والمنجنيقات. وكان جيشه، لكثرة جنده، ينهب القرى والمناطق، فكتب إليه الخليفة ينهاه عن ذلك، فأجابه طغرلبك بالاعتذار، ثمّ منع النهب والمصادرات. ثمّ حاصر السلطان تكريت وملكها.(٢)

روى ابن الأثير رواية عن قتال جرى في جوار نصيبين نصب فيه أنصار طغرلبك كمينين لمجموعات من العرب، رأينا ضرورة روايته كما هو. كتب ابن الأثير:(٣)

«وتوجّه السلطان إلى نصيبين، فقال له هزارسب: قد تمادت الأيام ورأيي أن أختار من العسكر ألف فارس أسير بهم إلى البرية فلعلي أنال من العرب غرضاً. فأذن له في ذلك، فسار إليهم، فلما قاربهم كمن لهم كمينين وتقدّم إلى الحلل. فلما رأوه قاتلوه فصبر لهم ساعة ثمّ انزاح بين أيديهم كالمنهزم فتبعوه، فخرج الكمينان، فانهزمت العرب وكثر فيهم القتل والأسر. وكان قد انضاف إليهم جماعة من بني نمير أصحاب حرّان والرقة وتلك الأعمال. وحمل الأسرى إلى السلطان، فلما أحضروا بين يديه قال لهم: هل وطئت لكم أرضاً

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٦.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٥ – ٩٥٦.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣٣.

وأخذت لكم بلداً؟ قالوا: لا، قال: فلم أتيتم لحربي؟ وأحضر الفيل فقتلهم إلاّ صبياً أمرد، فلما امتنع الفيل من قتله عفا عنه السلطان».

التقييم:

أ - تموين الجيوش:

نسجل في هذا القتال ظاهرة نهب القرى والمناطق التي كانت تجتازها الجيوش خلال العصور القديمة، وذلك ضمن مفهوم المصادرات لصالح تغذية هذه الجيوش.

لقد شكّلت تغذية الجيوش الكبيرة مشكلة لوجستية لجأ الاستراتيجيون واللوجستيون إلى دراسات مستفيضة لأجل حلّها. فالقول المأثور: «إذا قالت اللوجستية: لا، فعلى القائد تغيير خطته وأمر عملياته»، هو قول حديث، لكنه ينطبق تماماً على الجيوش العربية الإسلامية.

ب - نصب الكمائن:

ونعود أيضاً إلى التأكيد أن القادة العسكريين اعتمدوا خلال مرحلة دراستنا خطة نصب الكمائن لأعدائهم واستدراجهم إلى أمكنة هذه الكمائن لمفاجأتهم والانتصار عليهم. ويأتي ذلك تطبيقاً لإحدى قواعد الحرب التي تنصّ على وجوب «إخفاء النوايا عن العدو ومفاجأته».

ملحق رقم ١

سير بعض القادة[1]

١ - رئيس الرؤساء
أبو القاسم بن المسلمة

علي بن الحسين بن أحمد بن محمد بن عمر، أبو القاسم وزير القائم بأمر الله. كان أولاً قد سمع الحديث من أبي أحمد الفرضي وغيره، ثمّ صار أحد المعدلين، ثمّ استكتبه القائم بأمر الله واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الوزراء. كان متضلعاً بعلوم كثيرة مع سداد رأي، ووفور عقل. وقد مكث في الوزارة اثنتي عشرة سنة وشهراً، ثمّ قتله البساسيري بعدما شهره هذه السنة.[2] وله من العمر اثنتان وخمسون سنة وخمسة أشهر.

٢ - أرسلان أبو الحارس البساسيري التركي

كان من مماليك بهاء الدولة، وكان أولاً مملوكاً لرجل من أهل مدينة بساس، فنسب إليه فقيل له البساسيري، وتلقّب بالملك المظفر. ثمّ كان مقدماً كبيراً عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمراً دونه، وخطب له على منابر العراق كلّها. ثمّ طغى وبغى وتمرّد وعتا وخرج على الخليفة والمسلمين ودعا إلى خلافة الفاطميين، ثمّ انقضى أجله في هذه السنة.[2] وكان

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢.
(٢) سنة ٤٥٠ هـ.

دخوله إلى بغداد بأهله في سادس ذي القعدة من السنة خمسين وأربعمائة. ثمّ اتفق خروجهم منها في سادس ذي القعدة أيضاً من السنة إحدى وخمسين، بعد سنة كاملة. ثمّ كان خروج الخليفة من بغداد في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول. واتفق قتل البساسيري في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول، بعد سنة شمسية، وذلك في ذي الحجة منها.

الفصل الثالث

العمليات العسكرية بعد تولية طغرلبك وفي عهد ألب ارسلان

في السنة تسع وأربعين وأربعمائة عاد السلطان طغرلبك من الموصل إلى بغداد بعد تسليمها إلى أخيه إبراهيم ينال، فخرج رئيس الرؤساء إلى لقائه ومعه الأمراء والكبار والقادة. وجاء رئيس الرؤساء إلى السلطان فأبلغه سلام الخليفة، وقدّم له جاماً من الذهب مرصعاً بالجواهر.(١)

دخل طغرلبك بغداد وطلب الاجتماع بالخليفة الذي أذن له وجلس جلوساً عاماً، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد. وحضر السلطان في الماء وأصحابه حوله في السفن، فلما خرج من سفينته أُركب فرساً من مراكب الخليفة فحضر عند الخليفة الذي كان جالساً على سريرٍ عالٍ نحو سبع أذرع، وعليه بردة النبي ﷺ وفي يده قضيب الخلافة.

قبّل السلطان الأرض ويد الخليفة الذي قال لرئيس الرؤساء:(٢) «قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنس بقربك، وقد ولاّك جميع ما ولاّه الله من بلاده...»

وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه وخاطبه بملك المشرق والمغرب.

وخرج السلطان وأرسل إلى الخليفة تحفاً عظيمة، منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما وجد، ومعهم خيولهم وسلاحهم.(٣)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٧٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣٧.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٨.

هكذا، ومنذ هذا الحدث، أصبح السلطان طغرلبك حامي بلاد الخليفة ومتولّيها، ودخل العالم الإسلامي في زمن السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية في صورة رسمية.

١ - الحرب بين هزارسب وفولاذ

كان طغرلبك قد ولّى هزارسب بن بنكير ابن عياض أعمال البصرة وأرجان وخوزستان وشيراز، فقصد رسول تكين ابن عم السلطان، ومعه فولاذ، مدينة أرجان ونهباها فيما كان هزارسب مع السلطان في الموصل. فلما فرغ السلطان من تلك المنطقة سيّر هزارسب إلى بلاده وأمره بقتال المعتدَين. فسارإليهم وقاتلهم قتالاً شديداً قتل خلاله فولاذ وأُسر رسول تكين الذي أرسله إلى ابن عمه طغرلبك الذي أمر بسجنه.(١)

٢ - استيلاء البساسيري على الموصل وجلاؤه عنها

في السنة خمسين وأربعمائة للهجرة فارق إبراهيم ينال الموصل نحو بلاد الجبل، فقصدها البساسيري وقريش بن بدران وحاصراها فملكا المدينة وبقيت القلعة تقاوم وفيها «الخازن واردم» وجماعة من الجند.(٢)

حاصرها البساسيري أربعة أشهر حتى أكل من فيها دوابهم، ثمّ أمّنهم ودخل القلعة فهدمها.(٣)

وكان السلطان طغرلبك قد وزّع جنده في النوروز وبقي في ألفي فارس حين بلغه الخبر، فسار إلى الموصل فلم يجد فيها أحداً لأنّ البساسيري كان قد غادرها.(٤)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٨٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٥٩.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٤١.

٣ – وفاة الملك داود وملك ابنه ألب ارسلان

في السنة إحدى وخمسين وأربعمائة للهجرة توفي داود بن سلجوق شقيق السلطان طغرلبك، وكان صاحب خراسان مقابل آل سبكتكين ومانعهم عن دخولها. فلما توفي ملك خراسان إبنه ألب ارسلان.(١)

٤ – الفوضى في بغداد وعودة الخليفة إليها

في السنة خمسين وأربعمائة تمرّد إبراهيم ينال على أخيه السلطان طغرلبك وهرب إلى همذان فلحقه أخوه إليها. ثمّ جاءت الأخبار إلى بغداد عن أن طغرلبك محاصر في همذان، فانزعج الناس واضطربت بغداد. ثمّ جاء الخبر أن البساسيري عازم على قصد بغداد وأنه قد اقترب من الأنبار، فعزم الخليفة على مغادرة عاصمته، لكنه لم يفعل.(٢)

ولّما خلت بغداد من المقاتلة قيل للناس: «من أراد الرحيل عن بغداد فليذهب حيثما شاء»، فعبر كثيرون إلى الجانب الغربي.

وصف ابن كثير حال الرعب والفوضى في بغداد، فكتب:(٣)

«قال ابن الجوزي: وطار في تلك الليلة على دار الخليفة نحو عشر بومات مجتمعات يصحن صياحاً مزعجاً. وقيل لرئيس الرؤساء: المصلحة أن الخليفة يرتحل لعدم المقاتلة فلم يقبل. وشرعوا في استخدام طائفة من العوام، ودفع إليهم سلاح كثير من دار المملكة. فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة من هذه السنة(٤) جاء البساسيري إلى بغداد ومعه الرايات البيض

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤٩ – ٣٥٠.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٦٣ – ٩٦٤.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٨٥ – ٨٦.
(٤) سنة ٤٥٠هـ.

المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين. فتلقاه أهل الكرخ الرافضة وسألوه أن يجتاز من عندهم. فدخل الكرخ وخرج إلى مشرعة الزوايا، فخيّم به والناس إذ ذاك في مجاعة وضر شديد. ونزل قريش بن بدران في نحو من مائتي فارس على مشرعة باب البصرة.

وكان البساسيري قد جمع العيارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة. ونهب أهل الكرخ دور أهل السنّة بباب البصرة، ونُهبت دار قاضي القضاة الدامغاني. وتملك أكثر السجلات والكتب الحكمية، وبيعت للعطارين. ونهبت دور المتعلّقين بخدمة الخليفة. وأعادت الروافض الأذان بحي على خير العمل، وأذّن به في سائر نواحي بغداد في الجمعات والجماعات. وخطب ببغداد للخليفة المستنصر العبيدي، على منابرها وغيرها، وضربت له السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة فحاجف[1] الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء، بمن معه من المستخدمين دونها فلم يفد ذلك شيئاً.

فركب الخليفة بالسواد والبردة، وعلى رأسه اللواء وبيده السيف مصلت، وحوله زمرة من العباسيين والجواري حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رؤوس الرماح، وبين يديه الخدم بالسيوف. ثمّ إن الخليفة أخذ ذماماً من أمير العرب قريش ليمنعه وأهله ووزيره ابن المسلمة، فأمنه على ذلك كلّه، وأنزله في خيمة. فلامه البساسيري على ذلك، وقال: قد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بيني وبينك، من أنك لا تبتّ برأي دوني، ولا أنا دونك، ومهما ملكنا بيني وبينك.

ثمّ إن البساسيري أخذ القاسم بن مسلمة فوبّخه توبيخاً مفضحاً، ولامه لوماً شديداً، ثمّ ضربه ضرباً مبرحاً، واعتقله مهاناً عنده.

ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنفائس، والديباج والذهب والفضة، والثياب والأثاث، والدواب وغير ذلك، مما لا يحد ولا يوصف.

---

(١) حاجف: دافع.

ثمّ اتفق رأي البساسيري وقريش على أن يسيّروا الخليفة إلى أمير حديثة عانة، وهو مهارش بن مجلي الندوي، وهو من بني عم قريش بن بدران، وكان رجلاً فيه دين وله مروءة. فلما بلغ ذلك الخليفة دخل على قريش أن لا يخرج من بغداد فلم يفد دلك شيئاً، وسيّره مع أصحابهما في هودج إلى حديثة عانة، فكان عند هارش حولاً كاملاً، وليس معه أحد من أهله».

وفي أواخر تلك السنة خرج السلطان طغرلبك من همذان فقاتل أخاه وانتصر عليه. ثمّ اجتمع معه أولاد أخيه داود فسار بهم نحو العراق. وكتب إلى قريش بن بدران يأمره بإعادة الخليفة إلى بغداد ففعل، بعد أن استشار البساسيري الذي غادر بغداد إلى واسط، فدخلها السلطان طغرلبك بجيشه وعاد إليها الخليفة.[1]

التقييم:

أ - الشائعات في الحرب:

يلاحظ أن الفوضى في بغداد في السنة ٤٥٠هـ للهجرة حصلت بسبب سريان شائعة بأن السلطان طغرلبك محاصر مع جيشه في همذان، وأن البساسيري متجه إلى بغداد. وقد فعلت هذه الشائعة فعلها وحوّلت العاصمة العباسية إلى مدينة يسودها العنف والنهب والقتل.

ب - الحرب النفسية:

فالشائعات في القتال هي نوع من الحرن النفسية التي يشنّها العدو عادة كي تدبّ الفوضى في صفوف خصمه. وهذه الحرب النفسية موغلة في قِدم التاريخ العسكري، وقد نُقل عن جنكيزخان المغولي أنه، وقبل غزو بلدٍ ما، كان يرسل جواسيسه إليه تحت ستار التجارة حيث يقومون بتنفيذ مهمتين:

الأولى: دراسة أرض العدو وإمكاناته ونقل المعلومات عنها إلى أركان حرب جنكيزخان.

الثانية: نشر شائعات عن قوّة جيش جنكيزخان وعن البلدان التي سيطر عليها، وذلك بهدف زعزعة ثقة خصمه بنفسه.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

هذه الخطة طبّقها جنكيزخان طوال سنة كاملة قبل غزوه مملكة خراسان للشاه محمد، ونجح في ذلك.

ج - الجاسوسية والطابور الخامس:

وفي العصور الحديثة، من المعروف أنّ ما يسمى بـ«الطابور الخامس» هو مجموعات من الجواسيس الذين يعملون داخل صفوف الخصم في سبيل نقل المعلومات عنه وتحطيم معنوياته.

٥ – وقعة الفنيدق واحتلال حلب

في السنة اثنتين وخمسين وأربعمائة ملك محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس الكلابي حلب بعد ان ضيّق عليها، واجتمع معه جمع كبير من العرب.(١)

وكان محمود قد قصد حلب وحاصرها وضيّق عليها، لكنه لم يتمكّن من فتحها فرحل عنها. ثمّ عاود محاصرتها وملكها عنوة، لكنّ القلعة امتنعت عليه وأرسل من فيها إلى المستنصر بالله الفاطمي يستنجدونه. أمر المستنصر ناصر الدولة أبا محمد الحسين بن الحسن بن حمدان صاحب دمشق بأن يسير بمن عنده من الجند إلى حلب ويمنع محموداً عن السيطرة عليها. وبالفعل سار ناصر الدولة ودخلها مع جيشه الذي نهبها.(٢)

ثمّ وقعت الحرب بين محمود وناصر الدولة في ظاهر حلب، واشتدّ القتال بينهما فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً إلى مصر. وملك محمود حلب فقتل عمّه معزّ الدولة واستقام أمره فيها.(٣)

وعُرفت الوقعة بين ناصر الدولة ومحمود باسم «وقعة الفنيدق».

٦ – وفاة السلطان طغرلبك وملك السلطان ألب ارسلان

كان السلطان طغرلبك قد تزوّج السنة أربع وخمسين وأربعمائة من ابنة الخليفة،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٩٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٨٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٥٣.

ودخل عليها في السنة التالية التي توفي فيها، وكان عمره يومذاك سبعين سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.(١)

فلما توفي ثار العيّارون في بغداد وقتلوا سبعمائة شخص ونهبوا الأموال. وعندما رأى الناس ذلك حملوا السلاح وقاتلوهم.(٢)

بعد وفاته أُخذت البيعة لابن أخيه سليمان بن داود، وكان طغرلبك قد أوصى له بالملك بعده لأنه كان قد تزوّج بأمه. واتفقت الكلمة عليه، ولم يبقَ عليه خوف إلاّ من جهة أخيه الملك عضد الدولة ألب ارسلان، محمد بن داود، لأن قواد الجيش كانوا يميلون إليه، وقد خطب له أهل الجبل، ومعه وزيره نظام الملك. وكان ألب ارسلان يومذاك صاحب خراسان، فلما رأى عميد الملك الكندري(٣) تألّب الناس حوله أمر بالخطبة بالري للسلطان ألب ارسلان، وبعده لأخيه سليمان.(٤)

وزحف ألب ارسلان مع جند كبير من خراسان إلى الري، فلاقاه الناس جميعاً ودخلوا في طاعته.

وأعاد ألب ارسلان السيدة بنت الخليفة التي كانت زوجة طغرلبك إلى بغداد، وبعث وزيره نظام الملك لطلب الخطبة له في بغداد. فجلس له الخليفة القائم جلوساً فخماً في جمادى الأولى السنة ست وخمسين وأربعمائة للهجرة، وقلّد ألب ارسلان السلطنة، وسلمت إلى الوزير الخلع على مشهد من الناس. ولقّب ألب ارسلان ضياء الدين عضد الدولة، وخُطب له على منابر بغداد.(٥)

٧ – خروج عن الطاعة في افريقيا

في السنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة خرج صاحب مدينة سفاقس في

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٩٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٢.

(٣) الكندري: هو وزير طغرلبك، عميد الملك أبو نصر منصور محمد الكندري.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٠.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٠٠.

افريقيا حمو بن مليك عن طاعة صاحب افريقيا تميم بن المعزّ بن باديس، فجمع أصحابه واستعان بالعرب وسار إلى المهديّة لاحتلالها.[١]

سار تميم إليه في جيش ضمّ قبائل زغبة ورياح العربية، فالتقى الفريقان في «سلقطة» حيث جرت معركة عنيفة انهزم خلالها حمو ومن معه وأخذتهم السيوف فقتل أكثر جنده ونجا بنفسه وتفرّق باقي جنده. وعاد تميم مظفّراً فقصد مدينة سوسة التي كان أهلها قد جاهروا بالعصيان ضده، فقاتلهم وملك المدينة، ثمّ عفا عن أهلها وحقن دماءهم.[٢]

٨ – ملك ألب ارسلان هراة وصغانيان وختلان

لما توفي طغرلبك وملك ألب ارسلان تمرّد عليه أمير ختلان في قلعته ومنع الخراج عنه. قصده السلطان فرأى الحصن منيعاً على جبل شاهق، فحاصره وأقام عليه يقاتله، فلم يتمكّن منه. وفي أحد الأيام باشر ألب ارسلان القتال بنفسه، فترجّل وصعد الجبل، فتبعه الجند وتقدّموا عليه وألحوا في الزحف والقتال. وفيما كان صاحب القلعة يراقب القتال عن سورها، أصابه سهم رماه أحد جنود ألب ارسلان فقتل. عند ذلك هاجم جيش ألب ارسلان القلعة بعنف فتسلّق سورها وملكها.[٣]

ثمّ تمرّد عليه أيضاً عمه فخر الملك بيغو في هراة، فسار إليه ألب ارسلان في جيش كبير وحاصره وضيّق عليه، وقاتله ليلاً ونهاراً إلى أن تمكّن منه وتسلّم المدينة.[٤]

بعد ذلك سار من هراة إلى صغانيان، وكان أميرها موسى قد عصى عليه أيضاً. فلما قاربه ألب ارسلان صعد موسى إلى قلعة له على رأس جبل شاهق ومعه جماعة من المقاتلين الأشدّاء. وصل السلطان وباشر القتال فوراً، فلم ينتصف

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٦٦.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٢.

النهار حتى صعد جند السلطان الجبل وملكوا القلعة عنوة، وأخذوا موسى أسيراً فقتله السلطان واستولى على ولاية صغانيان بأسرها، ثمّ عاد إلى مرو ومنها إلى نيسابور.[1]

التقييم: الخليفة والسلطان:

أ - نلاحظ أنه، وعند تولية أحد السلاطين الجدد من قبل الخليفة، كانت تقوم ضده ثورات ويعتصم العصاة في قلاع حصينة على قمم الجبال الشاهقة. لذلك كان المطلوب دوماً من السلطان الجديد إثبات قوته العسكرية في وجه العصاة لأن الخليفة لم يكن يتمسّك دائماً بالمغلوب، إنما كان يولي المنتصر. وألب ارسلان بنفسه أصبح سلطاناً كونه أثبت مقدرته العسكرية وتغلّب على معارضيه.

ب - لذلك نرى أن رغبة الخليفة لم تكن محترمة في العصر السلجوقي أيضاً، أسوة بالعهد البويهي. فالخلفاء في هذا العصر اقتصر تأثيرهم على الشؤون الدينية، بحيث كان من المهمّ للقائد المنتصر أن يثبت الخليفة سلطته. وكان هذا الأخير ينصاع دوماً إلى القوي، كونه لا يملك القدرة على المقاومة العسكرية، كما أنه لا يملك الإمكانات المالية لتشكيل الجيوش وتحريكها. فهذا الأمر كان في يد السلاطين السلاجقة، وقبلهم السلاطين البويهيين.

ج - أما مقدرة السلاجقة العسكرية، فقد أثبتوها بجدارة في عصر السلطان طغرلبك والسلطان ألب ارسلان.

٩ - الحرب بين ألب ارسلان وقتلمش[2]

في السنة ست وخمسين وأربعمائة عصى شهاب الدولة قتلمش على ألب ارسلان، وهو من السلجوقية وجدّ الملوك أصحاب قونية وقيصرية وأقصرا وملطية،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٦.

(٢) في ابن خلدون: قطلمش.

وجمع جيشاً كبيراً وقصد الري ليستولي عليها.[1]

جهّز ألب ارسلان جيشاً كبيراً أيضاً، وسيّره على المغازة إلى الري، فسبق قتلمش إليها. وسار ألب ارسلان من نيسابور أول المحرم، فوصل دامغان وأرسل إلى قتلمش ينهاه عن فعله، فكان جواب هذا الأخير الرفض. وقامت الجموع التي معه بنهب قرى الري، وأجرى الماء على وادي الملح فتعذّر سلوكه. وخالف ألب ارسلان فشجّعه الوزير نظام الملك قائلاً:[2] «أيها الملك، لا تخف، فاني قد استقدمت لك جنداً ما بارزوا عسكراً إلاّ كسروه». فسأله الملك: «من هم؟»، قال: «هم العلماء والزهّاد، وهم يدعون لك وينصرونك بالتوجّه في صلواتهم وخلواتهم». فطابت نفس الملك.

واقترب الجيشان من بعضهما فلبس نظام الملك السلاح وعبّأ الكتائب واصطف العسكر تمهيداً للمعركة.

نقل ابن الأثير رواية عن ممارسة قتلمش علم النجوم الذي رأى فيه أنه منهزم في اليوم الأول للمعركة فحاول تأجيلها. كتب ابن الأثير:[3]

«وكان قتلمش يعلم علم النجوم، فوقف ونظر فرأى أن طالعه في ذلك اليوم قد قارنه النحس لا يرى معها ظفر، فقصد المحاجزة وجعل السبخة[4] بينه وبين ألب ارسلان ليمتنع من اللقاء».

لكن السلطان ألب ارسلان سلك طريقاً في الماء وخاض غمرته وتبعه جنده، فطلع منه سالماً مع جنده فوصلوا إلى قتلمش وجيشه واقتتلوا قتالاً شديداً، فلم يثبت جند قتلمش وانهزموا بسرعة، وقتل وأسر عدد كبير منهم. وأراد السلطان قتل الأسرى فشفع فيهم الوزير نظام الملك، فعفا عنهم وأطلقهم.[5]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٧.

(٤) السبخة: أرض أجريت فيها الماء فأصبحت مستنقعات يصعب اجتيازها.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٢.

وقتل قتلمش في المعركة فبكاه نسيبه ألب ارسلان.

التقييم:

من دراسة هذه المعركة يمكننا أن نستنتج الحقائق التالية:

أ - أهمية نظام الملك الذي كان قد أحسن للعلماء والزهّاد فضمن ولاءهم للسلطان. ومن المعروف أن الوزير كان خير عون للقائد والملك في تلك الأيام.

ب - ارتباط الحرب بعلم النجوم. فالأمير قتلمش ربط بدء معركته بالمعلومات التي حصل عليها من خلال ممارسته علم الفلك. وهذا الأمر كان شائعاً خلال هذه العصور من التاريخ العسكري الإسلامي. كما ارتبط القتال أيضاً أحياناً بعالم الغيب والممارسات السحرية.

ج - عمد قتلمش، سعياً إلى تأخير وصول ألب ارسلان، إلى استعمال طريقة الفيضانات المائية على الأرض لتحويلها مستنقعات ومنع جيش خصمه من بلوغ مكانه، وبالتالي تأخير القتال إلى اليوم التالي. وهذا الأمر ما زال شائعاً في القتال، وقد استعمل في الحرب العراقية - الايرانية عندما أُغرقت شبه جزيرة الفاو بالمياه لمنع الجيش العراقي من استعمالها.

د - كان السلطان ألب ارسلان يسير في مقدّمة جيشه ويتبعه جنده وهذه الصفة هي من صفات كبار القادة الناجحين الذين يشكلون مثالاً يقتدي به الجند، لذلك ينجحون. ومن القادة الكبار الذين كانوا أول من يدخل المعركة وآخر من يخرج منها نذكر الاسكندر المقدوني وهنيبعل وخالداً بن الوليد. وهذا ما يحفّز الجند على بذل أقصى جهودهم في سبيل نصرة قائدهم.

١٠ - حملة ألب ارسلان على بلاد الروم

في السنة نفسها سار السلطان من الري إلى أذربيجان فوصل مَرند[١] فجاءه أحد أُمراء التركمان الذي كان يكثر غزو الروم

(١) مرّند: من أشهر مدن أذربيجان، تبعد يومين عن تبريز.

واسمه طفدكين ومعه من عشيرته خلق كثير قد ألفوا الجهاد وعرفوا الأرض جيداً، فحثّه على قصد بلاد الروم وضمن له سلوك طريق مختصرة إليها. وبالفعل سار أمامه سالكاً مضائق صعبة فوصل إلى «نجران» فأمر بتصنيع سفن لعبور نهر أرس.[(١)]

وقيل للسلطان إن سكان «خُويّ وسلماس»[(٢)] من أذربيجان قد امتنعوا ببلادهم، فسيّر إليهم عميد خراسان وتهدّدهم فأطاعوه والتحقوا بجنده، فاجتمع إليه جمع كبير من الجند.

ثمّ سيّر ابنه ملكشاه والوزير نظام الملك في جيش بري تواكبه السفن إلى إحدى قلاع الروم، وكان جندها قد نزلوا منها وخطفوا بعضاً من الجند وقتلوا منهم عدداً آخر. زحف الجيش إلى القلعة وحاصرها وقاتل من فيها، فقتل أميرها وملكها المسلمون. ثمّ ملكوا قلعة «سرماري»، وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين. ثمّ فتح ملكشاه قلعة ثالثة وأراد تخريبها فنهاه نظام الملك وقال: «هي ثغر للمسلمين». ثمّ سلّم القلاع إلى أمير نجران.[(٣)]

بعد ذلك سار ملكشاه ونظام الملك بجيشهما إلى مدينة «مريم نشين» الحصينة بسورها من الأحجار الكبيرة الصلبة المشدودة بالرصاص والحديد، والكائنة إلى جانب نهر كبير. أعدّ نظام الملك لقتالها ما يحتاج إليه من السفن ومعدات الحصار، فجرى قتال شديد ليلاً ونهاراً، وبلغ المسلمين، السور ونصبوا عليه السلالم وصعدوا إلى أعلاه، لأن المعاول لم تستطع نقبه لقوّة حجره. فلما رأى أهلها عزم المسلمين تأثّرت معنوياتهم وتراجع قتالهم، فدخل المسلمون المدينة وخرّبوها وأحرقوها وقتلوا كثيراً من أهلها. وأسلم قسم منهم فنجوا من القتل.[(٤)]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٢.

(٢) جويّ: بلد مشهور من أذربيجان، تنسب إليه الثياب الخويّة.

- سلماس: مدينة مشهورة بأذربيجان تبعد يومين عن أرمية.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٠٠.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال حول المدن والقلاع في بلاد الكرج، فكتب:[1]

«وساروا إلى سبيذشهر، فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين. ثمّ إن الله تعالى يسّر فتحها فملكها ألب أرسلان وسار منها إلى مدينة أعال لال وهي حصينة عالية الأسوار شاهقة البنيان. وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال، وعلى الجبل عدّة من الحصون ومن الجانبين الأخرين نهر كبير لا يخاض. فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها، وكان ملكها من الكرج وهكذا ما تقدّم من البلاد التي ذكرنا فتحها.

وعقد السلطان جسراً على النهر عريضاً واشتدّ القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الأمان، والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر، فسيّر جمعاً صالحاً. فلما جازوا الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم. ولم يتمكّن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك.

وخرج الكرج من البلد وتصدّوا للعسكر واشتدّ القتال. وكان السلطان ذلك الوقت يصلي فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدّم إلى الكفار فقاتلهم وكبّر المسلمون عليهم فولوا منهزمين فدخلوا البلد والمسلمون معهم. ودخلها السلطان وملكها واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فقاتلهم المسلمون فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وأحراقه، ففعل ذلك، وأحرق البرج ومن فيه، وعاد السلطان إلى خيامه وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحد ولا يحصى.

ولما جنّ الليل عصفت ريح شديدة، وكان قد بقي من تلك النار التي أحرق بها البرج بقية كثيرة، فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها، وذلك في رجب سنة ست وخمسين. وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب تلك المدينة وأخذها وسار منها إلى ناحية فرس ومدينة آني، وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما دسل ورده ونورة، فخرج أهلهما مذعنين بالإسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

وسار منها إلى مدينة آني فوصل إليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لا ترام، ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية، لو طرحت فيه الحجارة الكبار لدحاها وحملها. والطريق إليها على خندق تليه سور من الحجارة الصم، وهي بلدة كبيرة عامرة كثيرة الأهل فيها ما يزيد على خمسمائة بيعة، فحصرها وضيّق عليها. إلاّ أن المسلمين قد أيسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها، فعمل السلطان برجاً من خشب وشحنه بالمقاتلة ونصّب عليه المنجنيق ورماة النشاب، فكشفوا الروم عن السور وتقدّم المسلمون إليه لينقبوه. فأتاهم من لطف الله، ما لم يكن في حسابهم، فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى بحيث أن كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد من كثرة القتلى. وأسروا نحواً مما قتلوا».

وصلت أخبار الإنجازات العسكرية هذه إلى الخليفة الذي أثنى على السلطان ألب ارسلان الذي راسله ملك الكرج في الهدنة فصَالحه على أدَاء الجزية فقبل ذلك.

التقييم:

من دراسة هذه الحملة الناجحة إلى بلاد الروم تتبيّن الحقائق التالية:

أ - إن هذه الحملة المنظّمة عسكرياً تذكّر بحملات جنكيزخان الناجحة والمدروسة جيداً.

ب - أظهر السلطان ألب ارسلان معرفة عميقة بالشؤون العسكرية. فهو، عندما اعتصم المقاتلون في أحد أبراج المدينة، أمر بإحراقه فاحترق بمن فيه. وفي مكان آخر أقام جسراً عريضاً في النهر. وعند محاصرة المدينة الكائنة على ضفة نهر أرس، صنع برجاً من خشب وشحنه بالمقاتلين ونصب عليه المنجنيق ورماة السهام فسيطر على المدينة.

إن استعمال البرج المتحرّك في حصار المدن ظلّ من الاستراتيجيات المستعملة في الجيوش خلال القرون الوسطى. أما المنجنيق والسهام فكانت من الأسلحة التي استعملها العرب المسلمون منذ بدايات صراعهم في سبيل فتح المدن الحصينة.

ج - ومما لا شك فيه ان المبادرة العسكرية، التي كانت خلال العصرين

العباسيين الثاني والثالث في يد الروم البيزنطيين، انتقلت مع طغرلبك وألب ارسلان وملكشاه إلى أيدي المسلمين، الذين قصدوا بلاد الروم وهدّدوا مدنها وقلاعها وشدّدوا الضغط على الامبراطورية البيزنطية. وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى قيام ما سمّي يومذاك بـ«الحروب الصليبية».

١١ - الحرب بين بني حماد والعرب في المغرب

في السنة سبع وخمسين وأربعمائة وقعت حرب في المغرب بين جهتين:[١]

- الأولى، وفيها بنو حماد بقيادة الناصر ابن علناس بن حماد، وقبائل صنهاجة وزناته من البربر؛ ومن العرب قبائل عدي والأثبج.
- الثانية، بقيادة المعزّ بن زيري الزناتي على مدينة سبته، ومعه قبائل رياح وزغبة وسليم العربية.

سار الناصر بصنهاجة وزناته وبني هلال، فالتقت العساكر في مدينة سبتة، فحملت رياح على بني هلال وحمل المعزّ على زناته فانهزمت الطائفتان وتبعهما عسكر الناصر فوقع فيهم القتل. وقيل إن عدد من قتل من صنهاجة وزناته بلغ أربعاً وعشرين ألفاً. وغنم العرب كلّ ما كان مع العسكر من مال وسلاح ودواب وغير ذلك. وتمّ للعرب ملك تلك البلاد.[٢]

التقييم:

نقل ابن الأثير أن بني رياح كانوا قد اتفقوا مع بني هلال على أن ينهزم هؤلاء عند بداية القتال. كما نقل أن المعزّ اتفق مع زناته على الموضوع نفسه. لذلك، وعند بداية المعركة، انهزم بنو هلال وزناته من دون قتال. وهذا يذكّرنا بالخيانات التي تحصل أثناء الحروب، وبالاتفاقات الجانبية والتي سبق الحديث عنها وعن انحياز قسم من جيش ما أثناء المعركة إلى الخصم الذي يربح المعركة حكماً.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٠٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

١٢ - عهد ألب ارسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه

في السنة ثمان وخمسين وأربعمائة سار ألب ارسلان من مرو إلى رايكان، فنزل في ظاهرها ومعه أمراء دولته، فأخذ عليهم العهود والمواثيق بتمليك ابنه ملكشاه بعده. وخلع السلطان على كلّ الأمراء وأمرهم بالخطبة لابنه في كلّ البلاد التي يحكم عليها.(١)

ثمّ أقطع أعماله فأعطى بلخ لأخيه سليمان، وخوارزم لأخيه ارسلان أرغو، ومرو لابنه ارسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس، ومازندران للأمير إينانج بيغو، ونقشوان ونواحيها لمسعود بن أرتاش(٢)، وولاية اسفزاز لمودود بن أرتاش.(٣) ثمّ أقطع الأنبار وهيت والبوازيج(٤) إلى شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران صاحب الموصل.

١٣ - استيلاء تميم بن المعزّ على مدينة القيروان

كان المعزّ بن باديس صاحب افريقيا قد ولّى قائداً بن ميمون الصنهاجي على القيروان وقابس. ولمّا ولي الملك تميم بن المعز بعد أبيه ثبّته في ولايته. وفي السنة ثمان وخمسين وأربعمائة أظهر قائد الخلاف على تميم والتجأ إلى طاعة الناصر بن علناس بن حماد، فسيّر إليه تميم جيشاً كبيراً. فلما سمع بذلك قائد بن ميمون، علم أنه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى الناصر، فدخل جيش تميم القيروان وخرّب دور القائد فيها.

ثمّ اتجه الجيش إلى قابس وفيها إبن خراسان فحاصرها مدّة سنة وشهرين. ثمّ أطاع ابن خراسان تميماً وصالحه، فأقرّ ولايته على قابس. أما قائد فانه أقام عند الناصر، ثمّ

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٣.

(٢) في ابن خلدون: ازناس.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٧٦.

(٤) هيت: بلدة على الفرات بجانب الأنبار.

- البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل - ويقال لها بوازيج الملك.

أرسل إلى أمراء العرب فاشترى منهم إمارة القيروان، ثمّ عاد إليها فبنى سورها وحصنها.[1]

١٤ - حملة ألب ارسلان على كرمان وبلاد فارس

في السنة تسع وخمسين وأربعمائة سار السلطان ألب ارسلان على رأس جيش كبير إلى كرمان، بعد ان عصى ملكها «قرا ارسلان» وخلع الطاعة وقطع الخطبة للسلطان ألب ارسلان. فلما قارب كرمان اصطدمت طليعته بطليعة صاحبها التي انهزمت بسرعة بعد قتال عنيف. فلما سمع قرا ارسلان بهزيمة طليعته تراجع من دون قتال إلى جيرفت وامتنع بها وأرسل إلى السلطان يطلب العفو مظهراً الطاعة، فعفا عنه.

ثمّ سار ألب ارسلان إلى فارس فوصل إلى اصطخر وفتح قلعتها، فأطاعه واليها كما أطاعته كلّ حصون فارس. وبقيت قلعة يقال لها بهنزاد، فأرسل وزيره نظام الملك إليها، فحاصرها تحت جبلها. وأعطى كلّ من رمى بسهم وأصاب قبضة من الدنانير، ومن رمى حجراً ثوباً نفيساً، ففتح القلعة في اليوم السادس عشر لحصارها.[2]

التقييم: المكافآت والعقوبات:

اعتمد الوزير نظام الملك على مكافأة الجنود المجلّين في القتال حول القلعة فربح المعركة. فالمكافآت للجنود هي من أهم الوسائل التي تزيد من معنوياتهم وتحفّزهم على المزيد من البطولة في ميادين القتال. لقد اعتمدت الجيوش خلال العصور، وحتى أيامنا هذه، سياسة المكافآت للعناصر المجليّة والعقوبات للعناصر المقصّرة بواجباتها. وأظهرت هذه السياسة نجاحها خلال عصور التاريخ العسكري جميعها.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٩.

١٥ - محاصرة صور وصيدا

كان القاضي عين الدولة بن أبي عقيل قد تغلّب على مدينة صور وملكها. وفي السنة اثنيتن وستين وأربعمائة سار أمير الجيوش بدر الجمالي[(١)] من مصر في جيش كبير إلى صور وحاصرها.[(٢)]

أرسل القاضي إلى الأمير قرْلُوا مقدّم الأتراك المقيمين بالشام يستنجده، فسار إليه في اثني عشر ألف فارس، فحاصر مدينة صيدا وهي لأمير الجيوش بدر الذي رحل حينئذٍ عن صور. ولما عاد الأتراك عاود بدر حصار صور براً وبحراً طوال سنة كاملة، وضيّق على أهلها. لكنه لم يتمكّن من فتحها، فرحل عنها.[(٣)]

١٦ - استيلاء ألب ارسلان على حلب

في السنة ثلاث وستين وأربعمائة خطب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس في حلب للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان ألب ارسلان، بعد أن رأى قوّة الدولة السلجوقية وانتشار دعوتها. وأقنع أهل حلب بذلك خوفاً من مهاجمة المدينة من قبل السلاجقة. وهكذا استجاب المشايخ إلى طلبه ولبس المؤذنون السواد، وأرسل الخليفة إلى محمود بالخلع.[(٤)]

وفي السنة نفسها سار السلطان ألب ارسلان إلى حلب فخرج إليه صاحبها وخدمه وسلّمه مائة ألف دينار. ثمّ سار إلى آمد فرآها ثغراً منيعاً، فانتقل منها إلى الرها فحاصرها من

---

(١) أصل بدر الجمالي من الأرمن من صنائع الدولة بمصر ومواليها، وكان حاجباً لصاحب دمشق. ثمّ مات صاحب دمشق فقام بالأمور إلى أن وصل الأمير ابن منير إلى دمشق، فسار إلى مصر وترقّي إلى أن أصبح والياً لعكا. ولما قامت ثورة على المستنصر، تغلّب عليها بدر فولاه الخليفة ما وراء بابه ولقبه بـ«أمير الجيوش». ثمّ استردّ ما كان تغلّب عليه أهل النواحي مثل ابن عمّار بطرابلس وابن معروف بعسقلان وبني عقيل بصور.

(٢) عن ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٨٤.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١١٢.

دون أن يظفر بها ويفتحها. ثمّ عاد إلى حلب وأرسل إلى صاحبها محمود للحضور إليه، فامتنع عن ذلك، فحاصر المدينة وشدّد حصارها فغلت الأسعار فيها.(١)

فلما اشتدّ الحصار، خرج والي المدينة محمود ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثّاب النميري طالبين من السلطان العفو، فتلقاهما ألب ارسلان بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده.(٢)

التقييم:

مما تقدّم نلاحظ أمرين:

الأمر الأول: رغم رضا الخليفة عن صاحب حلب الذي أعاد الخطبة للعباسيين في المدينة، فان السلطان ألب ارسلان أصرّ على خضوع صاحب العلاقة له شخصياً، طالباً منه الخروج من المدينة والحضور أمامه ودوس بساطه. فلما امتنع عن ذلك حاصر المدينة وشدّد حصارها حتى نفّذ صاحبها أوامره.

فالمرجعيّة السياسية والعسكرية في الدولة العباسية لم تكن خلال هذه المرحلة بيد الخليفة، إنما كانت محصورة بالسلطان السلجوقي حامي الخلافة والمدافع عنها.

الأمر الثاني: ما زالت الجيوش الإسلامية تعامل المدن المفتتحة بنفس الطريقة التي كان معمولاً بها منذ بداية الفتوحات الكبرى في الإسلام، باستثناء الممارسات العنيفة التي أصبحت معتمدة من قتل وإحراق وتمثيل بأهلها، وهي عادات لم تكن معروفة في بداية الإسلام. لذلك، فان القادة العسكريين، حتى في العصر العباسي الرابع، كانوا يميّزون ما بين المدينة التي تفتتح عنوة وتلك التي تفتتح صلحاً. ففي الحال الأخيرة، حتى ولو دام حصار المدينة قبل استسلامها مدّة طويلة من الزمن، كان القائد المنتصر يقرّ عليها صاحبها، الذي كانت المدينة تقاوم بقيادته، شرط اعترافه بسلطة المنتصر والخضوع له.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٨٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٨٨.

هذا باستثناء بعض الحالات النادرة التي كان المنتصر يجتاح المدينة وينهبها ويحرقها رغم إعطائها الأمان من قبله قبل دخولها.

١٧ - حملة الروم على بلاد الشام

في السنة اثنتين وستين وأربعمائة خرج ملك الروم أرمانوس من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل قاصداً بلاد الشام، ونزل على منبج ونهبها وقتل أهلها. زحف إليه محمود بن صالح بن مرداس وابن حسّان الطائي في بني كلاب وطيء ومن معهم من جموع العرب فهزمهم. ثمّ ارتحل وعاد إلى بلاده بسبب فقدان المواد الغذائية في منطقة وجود جيشه.(١)

وفي السنة التالية سار أرمانوس في مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنج والروس والكرخ والبجناك وغيرهم من طوائف بلاده، فوصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط. بلغ الخبر السلطان ألب ارسلان وهو في مدينة «خويّ» من اذربيجان، فلم يتمكّن من جمع جيش كبير بسبب بعده عن بغداد واقتراب العدو منه. لذلك سيّر الأثقال وزوجته مع نظام الملك إلى همذان، وسار بجيش بلغ خمسة عشر ألف فارس نحو العدو، فاصطدمت مقدّمته بمقدّمة الروم من الروس وعددهم عشرة آلاف، فجرى قتال عنيف انهزم الروس في نهايته وأُسر ملكهم.(٢)

ثمّ سار السلطان حتى التقى بجيش الروم فنقل ابن الأثير تفاصيل اللقاء والقتال الذي انتصر فيه المسلمون، فكتب:(٣)

«فلما تقارب العسكران، أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة، فقال: لا هدنة إلاّ بالري. فانزعج السلطان لذلك فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعد

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٥ - ٩٧٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١١١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح. فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة.

فلما كان تلك الساعة صلّى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهى. وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنّط وقال: إن قتلت فهذا كفني. وزحف إلى الروم وزحفوا إليه، فلمّا قاربهم ترجّل وعَفَر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء. ثمّ ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى. وأسر ملك الروم».

أطلق السلطان سراح الملك أرمانوس مقابل فدية بلغت ملياراً ونصف مليار دينار وإطلاق كلّ الأسرى في بلاد الروم مع هدنة خمسين سنة. إلاّ أن الملك دفع من الفدية فقط مائتي ألف دينار وطبقاً ذهبياً عليه جواهر بتسعين ألف دينار.[1]

التقييم:

– أطلق السلطان ملك الروم الذي وعده بدفع الفدية، فيما كانت العادة ان لا يُطلق الأسير إلاّ بعد دفع هذه الفدية.

– سبق ولفتنا إلى وجوب أخذ أعداد الجيوش التي يذكرها المؤرّخون بالتحفّظ، نظراً إلى ميل هؤلاء إلى زيادة أعداد الجيوش العدوّة وخفض أعداد الجيوش الصديقة المتواجهة. ففي المعركة التي سبق الحديث عنها جاء أن خمسة عشر ألف مقاتل هزموا مائتي ألف من الروم في قتال التحامي يستعمل فيه المقاتلون قواهم الجسدية إذ أنهم يحاربون بالسلاح الأبيض وهو الأمر الذي يدعو إلى التحفّظ.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٦ – ٩٧٧.

١٨ – فتح الرملة وبيت المقدس

في السنة ثلاث وستين وأربعمائة للهجرة قصد أحد الأمراء التابعين للسلطان ملكشاه واسمه «أتسز بن أوق الخوارزمي» بلاد الشام، فجمع الأتراك وسار فيهم إلى فلسطين، فحاصر مدينة الرملة وفتحها. ثمّ سار منها إلى بيت المقدس وحاصرها، وكان جيش مصري يدافع عنها، فافتتحها وملكها مع ما يجاورها من البلاد باستثناء عسقلان. ثمّ قصد دمشق وحاصرها ونهب البلاد المجاورة وقطع الميرة عنها، لكنه لم يتمكّن من فتحها.(١)

١٩ – الاستيلاء على قلعة فضلون في فارس

في السنة أربع وستين وأربعمائة للهجرة أرسل السلطان ألب ارسلان وزيره نظام الملك في جيش إلى بلاد فارس، وكان فيها حصن من أمنع الحصون لصاحبه فضلون الذي كان متمنّعاً عن إظهار الطاعة. حاصر الوزير الحصن ودعاه إلى طاعة السلطان فامتنع، فقاتله، فلم يتمكّن من فتحه بسبب ضخامة أسواره وارتفاعها.

إلاّ أنه لم يطل مقام الجيش حول الحصن حتى نادى أهله بطلب الأمان. وكان سبب هذا التغيير أن كلّ آبار الماء التي كانت داخل القلعة غارت مياهها في ليلة واحدة، فقادت ضرورة العطش أهل الحصن إلى التسليم، فأمّنهم نظام الملك وتسلّم الحصن.

لكن فضلون لجأ إلى قلعة في أعلى الحصن، فسيّر نظام الملك سرية من جنده إلى أهل فضلون وأقاربه لحملهم إليه ونهب أموالهم. ولمّا سمع فضلون بذلك ترك موضعه متنكّراً في من عنده من الجند وسار ليمنع أهله، فأسره جند نظام الملك الذين حملوه إلى السلطان فأمّنه وأطلقه.(٢)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩٢.

التقييم:

نستخلص مما تقدّم أمرين:

الأمـر الأول: أهمية اللوجستية في القتال وخاصة بالنسبة إلى المدن والحصون المحاصرة والتي تستسلم عند نفاد الزاد أو الماء. وهذا ما حصل فعلاً في القلعة كما أشرنا.

الأمـر الثـاني: نادراً ما استعمل القادة العرب المسلمون طريقة القبض على أهل وأقارب القائد العاصي لإرغامه على التسليم، كما جرى في القتال المذكور. فالعرب كانوا يقدّسون العرض ويحافظون عليه. وعندما كان يلجأ أحد إليهم كانوا يدافعون عنه حتى ولو كبّدهم ذلك خسائر فادحة.

٢٠ – مقتل السلطان ألب أرسلان

في السنة خمس وستين وأربعمائة سار السلطان ألب ارسلان في جيش يزيد على مائتي ألف فارس قاصداً ما وراء النهر لصاحبها تكّين، وعبر نهر جيحون على جسرٍ أُقيم عليه. وجيء له بمستحفظ القلاع واسمه يوسف الخوارزمي، فأمر بمعاقبته على ارتكابه أخطاء كبيرة. ثمّ قرّر معاقبته بنفسه وذلك برميه بسهم.[١]

نقل ابن كثير تفاصيل الحادث الذي أدى إلى مقتل السلطان، فكتب:[٢]

«كان السلطان قد سار في أول هذه السنة[٣] يريد أن يغزو بلاد ما وراء النهر. فاتفق في بعض المنازل أنه غضب على رجل يقال له يوسف الخوارزمي، فأوقف بين يديه فشرع يعاتبه في أشياء صدرت منه. ثمّ أمر أن يضرب له أربعة أوتاد ويصلب بينها، فقال للسلطان: يا مخنث ومثلي يقتل هكذا؟ فاحتدّ السلطان من ذلك وأمر بإرساله وأخذ القوس فرماه بسهم فأخطأه. وأقبل يوسف نحو السلطان فنهض السلطان عن السرير خوفاً منه، فنزل عنه فعثر فوقع فأدركه يوسف

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٧ – ٩٧٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١١٧.

(٣) سنة ٤٦٥هـ.

فضربه بخنجر كان معه في خاصرته فقتله. وأدرك الجيش يوسف فقتلوه. وقد جرح السلطان جرحاً منكراً، فتوفي في يوم السبت عاشر ربيع الأول من هذه السنة».

التقييم:

- نلاحظ مما تقدّم أنّ أمن السلطان كان معرّضاً، وهو غير محمي جيداً، رغم أنه يقود جيشاً يفوق بعدده المائتي ألف مقاتل. لذلك تمكّن مستحفظ القلاع من بلوغه وطعنه بخنجر كان معه.

ويمكننا أن نتساءل هنا: كم كان يبعد جند السلطان عن سرير ملكه؟ وكيف تمكّن المحكوم عليه من التقدّم منه مهدداً من دون أن يتدخّل أحد من قادته أو جنده لمنعه؟

إنّ تعريض حياة أهم شخصية في العالم الإسلامي يومذاك للخطر بهذه الطريقة هو أمر مستغرب. لكنّ هذا الاستغراب يزول عندما نعلم أن كبار القادة كانوا يشاركون في المعارك أُسوة بمقاتليهم، وقد عرف منهم من كان دائماً في أول الجيش المهاجم في صورة دائمة كخالد بن الوليد مثلاً. لذلك كان هؤلاء يعتقدون أن هيبتهم وعظمتهم تمنع الاعتداء على شخصهم بهذه الطريقة. إلاّ أنّ الأمور تحصل. وهذا ما حصل بالنسبة للقائد الكبير ألب ارسلان.

ملحق رقم ٢

سيرة السلطان طغرلبك

كتب ابن الأثير:(١)

«كان عاقلاً حليماً من أشدّ الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسرّه. ظفر بملطفات كتبها بعض خواصه إلى الملك أبي كاليجار، فلم يطلعه على ذلك ولا تغيّر عليه، حتى أظهره بعد مدّة طويلة لغيره. وحكى عنه أقضى القضاة الماوردي قال: لما أرسلني القائم بأمر الله إليه سنة ثلاث وثلاثين كتبت كتاباً إلى بغداد أذكر فيه سيرته وخراب بلاده وأطعن عليه بكلّ وجه. فوقع الكتاب من غلامي، فحُمل إليه فوقف عليه وكتمه ولم يحدّثني بشيء ولا تغير عما كان عليه من إكرامي.

وكان رحمه الله يحافظ على الصلوات ويصوم الاثنين والخميس. وكان لبسه الثياب البياض. وكان ظلوماً غشوماً قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً. وكان كريماً، فمن كرمه أن أخاه إبراهيم ينال أسر من الروم لما غزاهم بعض ملوكهم، فبذل في نفسه أربعمائة ألف دينار فلم يقبل إبراهيم منه، وحمله إلى طغرلبك، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان حتى خاطب طغرلبك في فكاكه. فلما سمع طغرلبك رسالته أرسل الرومي إلى ابن مروان بغير فداء وسيّر معه رجلاً علوياً. فأنفذ ملك الروم إلى طغرلبك ما لم يحمل في الزمان المتقدّم وهو ألف ثوب ديباج وخمسمائة ثوب أصناف وخمسمائة رأس من الكراع إلى غير ذلك. وأنفذ مائتي ألف دينار ومائة لبنة فضة وثلاثمائة شهري وثلاثمائة حمار مصرية وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكاً».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٦٢.

ملحق رقم ٣

سيرة السلطان ألب ارسلان

كتب ابن الأثير:[١]

«هو ألب ارسلان محمد بن داود جفري بك بن ميكائيل ابن سلجوق، وكان كريماً عادلاً عاقلاً لا يسمع السعايات. واتسع ملكه جداً ودان له العالم وبحق قيل له سلطان العالم. وكان رحيم القلب رفيقاً بالفقراء كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه؛ اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائين فبكى وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله.

وكان يكثر الصدقة فيتصدّق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار. وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه عليهم الإدارات والصلات ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كلّ سنة دفعتين رفقاً بهم. وكتب إليه بعض السعاة سعاية في نظام الملك وزيره وذكر ماله في ممالكه من الرسوم والأموال، وتركت على مصلاة فأخذها فقرأها. ثمّ سلّمها إلى نظام الملك وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا في الذي كتبوه فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلّتهم واشغلهم بما يشتغلون به عن السعاية بالناس. وهذه حالة لا يذكر عن أحد من الملوك أحسن منها. وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة. ولّما اشتهر بين الملوك حسن سيرته ومحافظته على عهوده أذعنوا له

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٤.

بالطاعة والموافقة، بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقصى الشام.

وكان شديد العناية بكفّ الجند عن أموال الرعية. بلغه أن بعض خواصّ مماليكه سلب من بعض الرستاقية إزاراً، فأخذ المملوك وصلبه فارتدع الناس عن التعرّض إلى مال غيرهم.

وخلف ألب ارسلان من الأولاد ملكشاه وهو صار السلطان بعده وإياز وتكش وبوري برش وتُتش وأرسلان وأرغو وسارة وعائشة وبنتاً أخرى».

الفصل الرابع
العمليات العسكرية في عهد السلطان ملكشاه

قبيل وفاته أوصى ألب ارسلان بالملك لابنه ملكشاه الذي جلس على سرير الملك وقام الأمراء بين يديه، فقال له الوزير نظام الملك: «تكلّم أيها السلطان». فقال: «الأكبر مني أبي، والأوسط أخي، والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أسبق إليه». فأجابوه بالسمع والطاعة.(١)

وكان نظام الملك هو الذي أخذ له البيعة فزاد في أرزاق الجند سبعمائة ألف دينار، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة له فخطب له على منابرها.(٢)

وكان السلطان ألب ارسلان قد أوصى قبل وفاته ابنه ملكشاه بأن يعطي أخاه قاروت بك(٣) بن داود أعمال فارس وكرمان وشيئاً من المال، وان يعطي ابنه أياز(٤) بن ألب ارسلان ما كان لأبيه داود وهو خمسمائة ألف دينار.

وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، فعبر الجسر في ثلاثة أيام ونزل نيسابور. وأرسل إلى ملوك الأطراف بالطاعة والخطبة له، فأجابوا وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك الذي أخذ لقب «أتابك».(٥)

أما الخليفة القائم بأمر الله، فقد جلس جلوساً عاماً مع ولي عهده المقتدي بأمر الله وأمر بأن تقام الخطبة في العراق وغيره

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١١٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.
(٣) بك هي كلمة تركية ترد للمرة الأولى في هذه الموسوعة.
(٤) في ابن خلدون: إياس.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٨.
معنى اتابك: الأمير الوالد.

للسلطان ملكشاه. وكان ذلك في السنة خمس وستين وأربعمائة للهجرة.

١ – ملك صاحب سمرقند مدينة ترمذ

في السنة نفسها، ولما بلغ صاحب سمرقند الملك التكين خبر وفاة ألب ارسلان ومبايعة ملكشاه وسيره عن خراسان، طمع في البلاد المجاورة، فقصد مدينة ترمذ بجيش كبير وفتحها ونقل ما فيها من ذخائر وأموال وغيرها إلى سمرقند. وكان إياز بن ألب ارسلان قد سار من بلخ إلى الجوزجان، فخاف أهل بلخ وأرسلوا إلى التكين يطلبون الأمان، فأمّنهم وخطبوا له، ونهب جنده بعضاً من أموال الناس. ثمّ عاد إلى ترمذ، فثارت جماعة من عامه بلخ ببعضٍ من أصحابه وقتلوهم، فعاد إليها وأمر بإحراقها. لكن أعيان المدينة طلبوا منه الصفح فعفا عنهم، لكنه أخذ أموال التجار منهم. وصل الخبر إلى إياز بن الب ارسلان فعاد إلى بلخ التي أطاعه أهلها. ثمّ سار عنها إلى ترمذ في عشرة آلاف فارس، حيث اصطدم بجيش التكين وجرى قتال عنيف هزم إياز خلاله، فتراجع جيشه عبر نهر جيحون، فغرق قسم كبير من جنده، وقتل قسم آخر، ولم ينجُ منهم سوى القليل.[١]

٢ – القتال بين السلطان ملكشاه وعمه قاروت بك[٢]

لما بلغ قاروت بك موت أخيه ألب ارسلان، سار في جيش كبير إلى الري للاستيلاء عليها، فسبقه إليها السلطان ملكشاه ونظام الملك وسارا منها باتجاهه فالتقوا بالقرب من همذان. وكان العسكر يميلون إلى قاروت بك.[٣]

بدأت المعركة بهجوم ميسرة قاروت على ميمنة ملكشاه التي هزمت. ثمّ حملت ميسرة ملكشاه، وفيها شرف الدولة مسلم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٥.

(٢) في ابن كثير: قاورت – وفي ابن الأثير وابن خلدون: قاروت.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١١٧.

ابن قريش وبهاء الدولة منصور بن دبيس بن مزيد، على ميمنة قاروت فهزمتها فانهزم جيش هذا الأخير وفرّ من المعركة.[1]

وعلم ملكشاه أن عمّه في بعض القرى القريبة، فأرسل سرية من جيشه وأحضره وقتله وأقرّ كرمان بيد أولاده وسيّر إليهم الخلع. وأقطع العرب والأكراد إقطاعات كثيرة مكافأة لهم على إنجازاتهم في المعركة.

٣ - الحرب في مصر بين الأتراك والعبيد

في السنة خمس وستين وأربعمائة قامت حرب لاهوادة فيها بين قوتين داخل الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر بالله:

- القوة الأولى هي قوّة الاتراك التي كانت تصطنعهم والدة الخليفة.
- القوّة الثانية همّ الموالي من السودان.

وكان أبرز القادة في مصر ناصر الدولة بن حمدان.

وكانت أم المستنصر متغلّبة على دولته، تصطنع الوزراء وتوليهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلّب على الدولة. فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله.[2]

أما المعارك التي حصلت بين القوتين فنذكر أبرزها:[3]

أ - قوي العبيد بعد ان تجمّعوا قرب القاهرة وأصبح عددهم يزيد على خمسين ألف فارس وراجل، فالتقوا بالأتراك في موضع يعرف بكوم الريش في جوار القاهرة. وكان الأتراك قد استمالوا إليهم قبائل كتامة والمصامدة فبلغ عددهم ستة آلاف مقاتل.

اقتتل الطرفان فانهزم الأتراك ومن معهم إلى القاهرة. وكان بعضهم قد كمن في خمسمائة فارس، فلما انهزم الأتراك ولاحقهم العبيد، خرج الكمين على ساقة

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٩٧ - ٤٠١.
وابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٣ - ١٣٤.

العبيد وحمل عليهم حملة منكرة مع ضرب الطبول والأبواق، فانهزم العبيد. ثمّ عاد عليهم الأتراك المنهزمون فأصبح العبيد محاصرين ما بين قوّتين حكّمتا فيهم السيوف، فقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً.

ب - ارتفعت معنويات الأتراك بعد هذه المعركة، أما العبيد فقد اجتمع إليهم العسكر في الصعيد من الشام وغيرها، فبلغ عددهم خمسة عشر ألف فارس وراجل، فساروا إلى الجيزة. خرج عليهم الأتراك ومن معهم واقتتلوا في الماء أياماً عدّة. ثمّ عبر الأتراك النيل إليهم بقيادة ناصر الدولة بن حمدان، فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم خلاله العبيد إلى الصعيد.

* أعاد العبيد جمع قواتهم في الصعيد فوقعت الحرب بينهم وبين الأتراك طيلة أيام ثلاثة انتصر في نهايتها الأتراك بقيادة ناصر الدولة وكثر القتل بالعبيد الذين زالت دولتهم من القاهرة.

* ثمّ قام العبيد بقطع الطرق في الصعيد، فسار إليهم ناصر الدولة في عسكر كثير فقاتلهم، فانهزم ناصر الدولة وعاد إلى الجيزة في مصر.

عاد ناصر الدولة وجمع جيشاً جديداً وسار إليهم في الصعيد فقاتلهم وانتصر عليهم وأكثر القتل فيهم فزالت دولتهم أيضاً من الصعيد.

* بعد ذلك، اختلف الأتراك وناصر الدولة، فحملوا عليه فانهزم وقتل من أصحابه عدد كبير.

التجأ ناصر الدولة إلى بني سنبس وأقام عندهم وصاهرهم. وتجهّز الأتراك وساروا إليه في ثلاثة جيوش، أراد أحد مقدميها أن يفوز بالنصر، فعبر في من معه إلى ناصر الدولة وحمل عليه، فظفر به ناصر الدولة كما ظفر أيضاً بالجيشين الباقين، كلّ على حدة، وأكثر القتل فيهم وأسر مقدّميهم. ثمّ إنه نهب الريف وأقطعه لقادته وقطع الميرة عن القاهرة براً وبحراً فغلت الأسعار، وامتدّت أيدي الجند فيها إلى النهب والقتل. وهلك في القاهرة كثيرون من أصحاب المستنصر وتفرّق آخرون عنه. ثمّ سيطر ناصر الدولة على الاسكندرية ودمياط والريف وقطع خطبة المستنصر، وأرسل إلى الخليفة العباسي يطلب خلعاً ليخطب له في مصر.

وبالغ ناصر الدولة في إهانة المستنصر الذي تفرّق أهله وأولاده وأصحابه عنه.

أخيراً اتفق ثلاثة من القادة الأتراك على قتل ناصر الدولة، وكان قد أمن لقوّته، فتواعدوا على ليلة قدموا فيها إلى باب داره فدخلوا من دون استئذان إلى صحن الدار. خرج إليهم ناصر الدولة في رداء لأنه كان آمناً منهم. فلما دنا منهم تناولوه بسيوفهم حتى قتلوه، كما قتلوا أخاه فخر العرب وأخاه تاج المعالي. وانقطع ذكر الحمدانية بمصر.

فلما كانت السنة ست وستون وأربعمائة للهجرة وُلي الأمر في مصر بدر الجمالي أمير الجيوش.

التقييم:

من دراسة القتال الذي استمرّ أكثر من سنة بين الأتراك والعبيد، يمكننا التذكير بالحقائق التالية:

أ - أهمية نصب الكمين الذي أقامه الأتراك فتمكّنوا من أعدائهم بعد ان كانوا قد هُزموا. وهذه الأهمية للكمائن التي تؤمن المبادرة والمفاجأة التكتيكية ثبتت خلال عصور التاريخ العسكري، وما زالت فعّالة في القتال حتى يومنا هذا.

ب - لم يكن وضع الخلافة الفاطمية في مصر خلال هذه المرحلة بأفضل من وضع الخلافة العباسية في بغداد، إذ أن القادة والجند تحكّموا بالخليفة الذي أصبح لا يملك قوّة كافية لضبط الأمور، حتى في عاصمته. كما أن تدخل والدة الخليفة المستنصر في تغيير الوزراء كان عامل ضعف بالنسبة له.

ج - أظهر الأتراك في مصر قدرة قتالية عالية، إذ أنهم انتصروا في كلّ معاركهم ضد العبيد رغم تزايد أعداد هؤلاء. فالعبيد والعامة لم يكونوا مؤهّلين للتصدّي لوحدات قتالية على درجة عالية من الأهلية، كوحدات الأتراك التي كانت بقيادة مقدّميهم المجرّبين في القتال والمتمرّسين على القيادة.

د - قاتل نصر الدولة جيوشاً ثلاثة للأتراك الواحد تلو الأخر فهزمهم. وهذا القتال يذكّرنا بخطّة المناورة في الخطوط الداخلية التي ينفّذها الجيش عامةً عند مهاجمته من قبل جيوش عدّة ومن جهات مختلفة. وتقضي هذه الخطة بما يلي:

- تثبيت الجيوش المهاجمة بأقل ما يمكن من القوى، شرط عدم انهيار أي من الجهات المكلفة هذه القوى بحمايتها، ومهاجمة أقوى الأعداء بعنف وحدّة والتغلّب عليه.

- الانتقال بعد ذلك إلى مهاجمة الخصم الأقوى من الخصوم الباقين.

- وهكذا دواليك لحين الانتهاء منهم جميعاً.

طبّق قادة كبار عبر التاريخ خطّة المناورة في الخطوط الداخلية وتغلبوا على أعدائهم العديدين.

هـ - ظهرت صعوبة كبرى في ضبط الأمن الداخلي في المدن والأرياف أثناء شن الحروب، وهذه الصعوبة برزت خلال مختلف العصور. فعندما تُشن الحروب العامة تقوم عناصر داخلية، قد تكون مرتبطة بالعدو، بتنفيذ شغب وقلاقل لصرف جيش البلاد عن مهمته الأساسية أحياناً، وتعرف بـ«الطابور الخامس».

فخلال المعارك المذكورة نهبت القاهرة ومدن مصرية أخرى، وسيطرت على الريف والصعيد عصابات من قطاع الطرق.

٤ - وفاة الخليفة القائم بأمر الله وخلافة المقتدي بأمر الله

في السنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة توفي الخليفة القائم بأمر الله أمير المؤمنين عبدالله أبو جعفر بن القادر بالله بسبب مرض ألمّ به. فلما حضرته الوفاة أحضر ولي العهد وأوصاه بوصاياه. ثمّ استدعى القضاة والفقهاء وغيرهم، مع الوزير ابن جهير، وأشهدهم على ولاية العهد لحفيده أبي القاسم عبدالله بن محمد بن القائم.[(١)]

وكانت وفاته ليلة الخميس في الثالث عشر من شعبان عن أربع وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام. وكانت مدّة خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوماً، انتقلت بعدها الخلافة

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٢١.

العباسية من عصرها الثالث إلى عصرها الرابع، ومن سيطرة الدولة البويهية إلى سيطرة السلطنة السلجوقية.[1]

ولما توفي الخليفة بويع المقتدي بأمرالله بالخلافة الذي صلى بالجماعة العصر. ولم يكن للقائم عقب ذكر غيره، لأن ابنه محمداً توفي في حياته، ولم يكن له غيره. ولما ولي الخلافة أقرّ فخر الدولة بن جهير على وزارته.[2]

٥ – ملك الاقسيس دمشق وحصاره مصر

ذكرنا سابقاً انّ أحد أمراء السلطان ملكشاه «اتسز بن أوق الخوارزمي»، ويقال له «الأقسيس»، ملك الرملة وبيت المقدس، وحاصر مدينة دمشق من دون التمكّن من فتحها، فجعل يقصدها كلّ سنة عند الحصاد فيأخذ غلّتها فيقوى بها عسكره ويضعف أهل دمشق.[3]

وفي السنة ثمانٍ وستين وأربعمائة للهجرة سار إلى دمشق وحاصرها، وأميرها المعلى ابن حيدرة من قبل الخليفة الفاطمي المستنصر، فهرب أميرها إلى بانياس لأن الجند والعامة ثاروا عليه بسبب تعسّفه وظلمه. ووقع الخلاف داخل دمشق بين المصامدة وعامة المدينة، فشدّد الاقسيس الحصار عليها فسلّمها أهلها إليه صلحاً، فدخلها وخطب للمقتدي بأمرالله العباسي بعد مائة وستين سنة من السيطرة الفاطمية على المدينة. ثمّ تغلّب على كلّ مناطق الشام التي عادت إلى السيطرة العباسية.[4]

وفي السنة التالية بدأ عمارة قلعة دمشق، قبل أن يتوجّه إلى مصر ويحاصرها ويضيّق على أهلها. لكن القائد بدر الجمالي جمع

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٧٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٠٧.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٢٤.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤١٠.

الجند من العرب وغيرهم وقاتله فهزمه وقتل أكثر أصحابه.(١)

عاد الاقسيس إلى دمشق فرأى أن أهلها قد حافظوا على أمواله، فشكرهم ورفع عنهم خراج سنة كاملة. ثمّ قصد بيت المقدس فوجد أن أهلها قد نقضوا طاعته، فحاصر المدينة وفتحها عنوة ونهبها وقتل من أهلها عدداً كبيراً. ولم ينجُ منهم إلاّ من لجأ إلى المسجد الأقصى.(٢)

٦ – استيلاء تتنش بن ألب ارسلان على دمشق

في السنة سبعين وأربعمائة أقطع السلطان ملكشاه أخاه تتشاً بلاد الشام وما يفتتحه من نواحيها، فسار إلى حلب السنة إحدى وسبعين وأربعمائة وحاصرها وضيّق على أهلها الذين لحقت بهم مجاعة شديدة. وكانت معه جموع كثيرة من التركمان.(٣)

وكان الخليفة الفاطمي قد أرسل جيوشه، مع قائده أمير الجيوش بدر الجمالي نصير الدولة، إلى دمشق فحاصرتها وضيّقت عليها. فأرسل صاحبها الاقسيس إلى تاج الدولة تتش يستنصره، فسار هذا الأخير إلى نصرته. فلما سمع المصريون باقتراب جيشه، رفعوا الحصار عن المدينة وتراجعوا منهزمين.

نقل ابن خلدون نهاية الرواية التي استولى فيها تتش على دمشق وقتل الاقسيس، فكتب:(٤)

«وجاء إليها تتش، فخرج أتسز للقائه بظاهر البلد، فتجنّى عليه حيث لم يستعدّ للقائه، وقبض عليه وقتله لوقته، وملك البلد وأحسن السيرة فيها».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤١٢.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣١.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٢.

٧ – فتوحات الملك إبراهيم آل سبكتكين في الهند

في السنة اثنتين وسبعين وأربعمائة للهجرة غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فحاصر قلعة «أجود»،(١) وهي قلعة كبيرة محصّنة جيّداً يدافع عنها عشرة آلاف رجل. قاتله جند القلعة قتالاً شديداً وصبروا على الحصار رغم أنه زحف إليهم غير مرّة ورأوا من شدّة حربه ما ملأ قلوبهم رعباً. لذلك سلموا إليه القلعة.(٢)

ثمّ قصد قلعة «رويال» الكائنة على رأس جبل شاهق، وتحتها غياض وخلفها البحر، ولا تمكن مقاتلتها إلاّ من مكان ضيّق عليه العديد من الفيلة المقاتلة، وفي القلعة آلاف من المقاتلين. لكن إبراهيم حاربهم وانتصر عليهم وافتتح القلعة وملكها.(٣)

ثمّ سار إلى موضع يقال له «دره نوره» وفيه أقوام من الخراسانيين الذين لم يتعرّض إليهم أي غازٍ، فدعاهم إلى الإسلام أولاً، فامتنعوا عن إجابته وقاتلوه. فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وسبى واسترقّ من النساء والصبيان مائة ألف، وتفرّق من سلم منهم في البلاد.(٤)

وفي بلاد الهند موضع يقال له «وره وهوبر» بين خليجين، وفي طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة. قصده الملك إبراهيم فأقام هناك ثلاثة أشهر لقي خلالها جنده شدّة كبيرة في الشتاء. لكن إبراهيم لم يفارق الغزوة حتى أخضع سكان ذلك الموضع، ثمّ عاد إلى غزنة مظفراً.

٨ – ملك شرف الدولة مدينة حلب

في السنة اثنتين وسبعين وأربعمائة للهجرة مَلَكَ شرف الدولة مسلم بن قريش

---

(١) قلعة أجود تقع على مائة وعشرين فرسخاً من لهاوور.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٢٠.
(٤) المرجع نفسه.

العقيلي صاحب الموصل مدينة حلب.[١] وكان قد سبق لتاج الدولة تتش بن ألب ارسلان أن حاول فتحها بعدما حاصرها وشدّد الحصار على أهلها الذين كان يمدّهم شرف الدولة بالغلال أثناء الحصار. ولمّا لم يتمكّن تتش من فتحها، رحل عنها وملك «بزاعة» و«البيرة» وأحرق «ربض عزاز» وعاد إلى دمشق. عند ذلك استدعى أهل حلب شرف الدولة ليسلّموه المدينة، فلما قاربها امتنعوا عن ذلك. وكان صاحبها يدعى «ابن الحتيتي العباسي»،[٢] فاتفق انّ ولده خرج من المدينة إلى الصيد فأسره أحد التركمان وسلّمه إلى شرف الدولة، فقرر والده تسليم المدينة لقاء إطلاق سراح ابنه.

وتمّ ذلك، فأذعن ابن الحتيتي ونادى بشعار شرف الدولة الذي دخل حلب السنة ثلاثة وسبعين وأربعمائة للهجرة. لكن سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس لجآ إلى القلعة التي حاصرها شرف الدولة وملكها عنوة.[٣]

ولمّا ملك المدينة كتب إلى السلطان طالباً ضمانها، فأجابه إلى ذلك واقطعه حلب.[٤]

التقييم:

- لقد أسر محاصرو حلب ابن صاحبها الذي سلّم المدينة مقابل إطلاق سراحه.

هذا الحادث تكرّر مرّات عدّة خلال عصور التاريخ العسكري. وقد سجلت حالات رفض فيها صاحب الحصن أو القلعة تسليمهما مقابل إطلاق سراح ابنه. فعلى سبيل المثال، رفض السموأل تسليم دروع امرئ القيس، رغم أسر ابنه خارج حصنه مشاهداً من أعلى الحصن مقتل ابنه على يد محاصري الحصن.

وفي تاريخ الحرب الاسبانية التي سبقت الحرب العالمية الثانية سجلت حادثة مماثلة مع جنرال قائد لإحدى القلاع في جنوب البلاد الذي شاهد أيضاً مقتل ابنه ولم يسلّم القلعة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٢١.

(٤) شرف الدولة هو ابن عمة السلطان ملكشاه.

- إن ربط مصير المعركة بحياة ابن القائد المعادي هو عمل لا تقرّه مبادىء الشرف العسكري. كما ان تسليم الوديعة، أحِصناً كانت أم مدينة، لقاء حياة فرد واحد هو عمل لا تقرّه أيضاً مبادىء الشرف العسكري التي تقضي على القائد بالمقاومة والدفاع عن الهدف المكلف بحمايته واستنفاد كلّ وسائل الدفاع الممكنة قبل تسليمه.

إلاّ أننا لاحظنا، خلال حروب الحصار التي تطرّقنا إليها في موسوعتنا هذه، أن تسليم المدينة صلحاً بعد تأمين أهلها هو أمرٌ درج عليه كثيرون من القادة المسلمين، وذلك لأسباب أبرزها:

أ - إن فتح المدينة عنوة قد يجرّ إلى قتل كلّ الرجال وأسر النساء والصبيان فيها واسترقاقهم. لذلك يحاول أصحابها الابتعاد عن هذا الحل.

ب - كانت هذه الحروب الداخلية تجري بين المسلمين أنفسهم. لذلك كان القائد المحاصَر يفضّل المحافظة على أرواح المسلمين، لاسيما ان الجيش المهاجم هو جيش إسلامي، سيعتمد بعد فتحه المدينة المبادىء العسكرية الإسلامية في التعامل مع أهلها.

ج - غالباً ما كان القائد الغازي، وبعد أن يدخُل المدينة صلحاً، يقرّ صاحبها السابق عليها لقاء دفع مبالغ نقدية أو أتاوة سنوية.

ودرج القادة العرب المسلمون عند القيام بالاجتياحات الكبرى على عدم ترك حاميات عسكرية من جيشهم فيها بل الجلاء عنها، وذلك كي لا يخسروا أعداداً كبيرة من جيوشهم تُكلّف بحماية المدن المفتتحة. لذلك كان هؤلاء يعودون أحياناً إلى فتح المدن المرّة تلو المرّة كونها تعود إلى العصيان وطرد عاملهم منها.

د - كما أن احتلال مدينة لا يعني دائماً إمكان تولّيها، إذ تلزم لذلك موافقة الخليفة أو السلطان وإقرارهما بتولّي المدينة من قبل القائد الذي فتحها. وأحياناً كانت الدولة العباسية تقرّر إرسال جيش لإجلاء المحتل عن المدينة.

٩ – عصيان تتش[١] على أخيه السلطان ملكشاه

في السنة ثلاث وسبعين وأربعمائة سار السلطان ملكشاه إلى الري وعرض جنده فطرد منهم سبعة آلاف رجل، لم ترضه حالهم، وذلك رغم نصيحة الوزير نظام الملك. وقيل إن نظام الملك قال للسلطان:[٢]

«ان هؤلاء ليس فيهم كاتب ولا تاجر ولا خياط، ولا من له صفة غير الجندية، فإذا سقطوا لا نأمن أن يقيموا منهم رجلاً وقالوا هذا السلطان، فيكون لنا منهم شغل، ويخرج من أيدينا أضعاف مالهم من الجاري إلى أن نظفر بهم». فلم يقبل ملكشاه قوله.

لكن خوف الوزير كان مبرّراً، إذ إن هؤلاء ساروا إلى أخي السلطان تتش ببوشنج فقوي بهم وأظهر العصيان على أخيه ملكشاه. واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجان وترمذ وغيرها، وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان.[٣]

اتصل خبر تتش بالسلطان ملكشاه فسار مسرعاً إلى خراسان، فوصل نيسابور قبل أن يستولي تتش عليها. فلما سمع تتش بقربه منها سار عنها وتحصّن بترمذ، وقصده السلطان وحاصره فيها. وكان تتش قد أسر جماعة من أصحاب السلطان فأطلقهم واستقرّ الصلح بين الأخوين، بعد أن حضر تتش إلى معسكر أخيه وتخلّى عن ترمذ.[٤]

التقييم:

– تخلّى السلطان عن سبعة آلاف من جنده لأن حالهم لم ترضِه، وذلك بعد أن عرض جيشه.

وهذه هي المرّة الأولى التي سجّلنا في هذه الموسوعة أنّ قائداً مسلماً قام بالتفتيش على

(١) في ابن الأثير وابن كثير: تكش – والأصح تتش (ابن خلدون).

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٢٣.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٣.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٢٣.

جنده وسرّح الذين لم ترضِه حالهم. ومما لا شكّ فيه أن هذا العمل هو تصرّف سليم في الجيوش لأن الجند الفاسد في جيش ما يشكّلون خطراً على هذا الجيش.

إلاّ أن تسريح عدد كبير من الجيش هو أمر فيه من الخطورة ما يمنع القائد عن القيام به. وربما لجأ أحد القادة في هذه الحال إلى تسريح مجموعة إثر أخرى. فتخوّف الوزير نظام الملك كان مبرّراً، إذ إنّ الجنود المسرحين وضعوا أنفسهم وسيوفهم بتصرّف أحد القادة الذي تجرّأ على العصيان، وهو تتش شقيق السلطان.

لقد سجّل التاريخ العسكري حالات مماثلة لهذه الحال انتهت في معظم الأحيان بحوادث مماثلة لحادث عصيان تتش. وآخر هذه الحالات حصل في العراق، حين سرّح التحالف ضد الرئيس صدام حسين الجيش العراقي بكامله، ممّا أمّن للمعارضة جنداً مدرّباً وجاهزاً للقيام بالعمليات ضد الجيش الأجنبي الذي يحتل البلاد.

أما في لبنان، وبعد الحرب الداخلية التي تصارعت فيها الميليشيات على الساحة اللبنانية، فقد قامت السلطات باستيعاب قسم من هذه الميليشيات في الجيش الوطني وقوى الأمن الداخلي، وذلك بعدما حلّت الميليشيات وأنهت وجودها. وهكذا حالت دون قيام عناصرها بأعمال شغب وعصيان على الدولة.

١٠ – محاصرة شرف الدولة دمشق

في السنة أربع وسبعين وأربعماية للهجرة جمع تاج الدولة تتش جيشاً كبيراً وسار عن بغداد قاصداً الساحل الشامي، فافتتح مدينة أنطرطوس وبعضاً من الحصون وعاد إلى دمشق.[١]

وفي السنة التالية جمع أيضاً جيشاً كبيراً وسار عن بغداد وقصد انطاكية وما جاورها من بلاد الروم. سمع شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب بالخبر فخافه،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٤.

فجمع العرب من عقيل والأكراد وغيرهم، فاجتمع إليه جيش كبير، وراسل الخليفة الفاطمي طالباً منه إرسال نجدة إليه ليحاصر دمشق، فوعده بذلك.

سار شرف الدولة إلى دمشق فوصلها في المحرم السنة ست وسبعين وأربعمائة للهجرة وحاصرها، وكان تتش قد عاد إليها ودخلها عندما علم بتوجّه شرف الدولة لحصارها. وقاتل أهل دمشق الجيش المحاصر. وفي أحد الأيام خرج عسكر دمشق إلى شرف الدولة فقاتلوه وحملوا على جيشه حملة صادقة، فانكشف الجيش وتضعضع فيما ثبت شرف الدولة وكاد أن يؤسر.(١)

أمام مقاومة دمشق العنيفة وهزيمة جيشه وعدم وصول نجدات من الفاطميين، رأى شرف الدولة وجوب التراجع عن محاصرة المدينة، لاسيما بعد وصول أخبار عن عصيان أهل حرّان عليه. وهكذا رحل مظهراً أنه يريد فلسطين، فنزل في مرج الصفر، ثمّ رحل مشرّقاً في البرية، فهَلك عدد كبير من جنده ومواشيه ودوابه.(٢)

١١ – عصيان أهل حرّان على مشرف الدولة

في السنة ست وسبعين وأربعمائة للهجرة، وفيما كان شرف الدولة يحاصر دمشق وفيها تتش بن ألب ارسلان، شقّ أهل حرّان عصا الطاعة عليه وأطاعوا قاضيها ابن حلبة الذي أراد تسليم البلاد إلى جبق أمير التركمان.(٣)

لمّا بلغ الخبر شرف الدولة رفع الحصار عن دمشق وصالح ابن ملاعب صاحب حمص وأعطاه سلمية ورفنية، وبادر بالمسير إلى حرّان فحاصرها ورماها بالمنجنيق فخرّب سورها الذي تهدّم. وفتح المدينة واستولى عليها وصلب قاضيها ابن حلبة وابنيه على السور.(٤)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٢٩.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٧.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٣٠.

١٢ – معارك في شمال افريقيا

في السنة أربع وسبعين وأربعماية للهجرة حاصر الأمير تميم بن المعزّ بن باديس صاحب افريقيا مدينة قابس حصاراً شديداً وضيّق على أهلها. وعاثت عساكره في بساتينها المعروفة بـ«الغابة» فأفسدوها، ولم يتمكّن من فتحها.(١)

وفي السنة التالية جمع مالك بن علوي العرب وسار إلى المهديّة فحاصرها، فسار إليه الأمير تميم صاحب افريقيا وقاتله وأجبره على الرحيل من دون الظفر بالمدينة. ثمّ سار مالك منها إلى القيروان فحاصرها وجرى قتال شديد حولها فملكها. جمع تميم جيشاً كبيراً وقصد المدينة فحاصر مالك في داخلها. فلما رأى هذا الأخير استحالة مقاومة تميم، خرج من القيروان وتركها، فاستولى عليها جيش تميم وعادت إلى ملكه كما كانت.(٢)

١٣ – الحرب بين فخر الدولة بن جهير وابن مروان وشرف الدولة

كان السلطان ملكشاه قد سيّر جيشاً كبيراً إلى ديار بكر لفتحها بقيادة فخر الدولة ابن جهير. وفي السنة سبع وسبعين وأربعمائة للهجرة سيّر السلطان جيشاً جديداً لمساعدته بقيادة الأمير أرتق بن أكسب، وغالبية جنده من التركمان.(٣)

وكان ابن مروان صاحب ديار بكر قد مضى إلى شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وسأله نصرته، على أن يسلّم إليه آمد، فاجتمعا لحرب ابن جُهير. وسار هؤلاء إلى آمد، وقد نزل ابن جهير في نواحيها.(٤)

فلمّا رأى ابن جهير اجتماعهما مال إلى الصلح، وذلك حقناً لدماء العرب المسلمين، فعرف التركمان بعزمه هذا فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب وأحاطوا بهم. والتحم القتال

(١) المرجع نفسه، ص ٤٢٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص١٣.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٨.

واشتدّ فانهزم العرب وغنم التركمان الكثير من معسكرهم.(١)

انهزم شرف الدولة فهرب إلى آمد وحاصره ابن جهير فيها. فلما رأى شرف الدولة انه محاصر، راسل القائد أرتق وبذل له مالاً وسأله المساعدة للخروج من آمد، فأذن له، فخرج منها وقصد الرقة، وأرسل إلى أرتق بما كان وعده به.(٢)

أما ابن جهير فسار إلى ميافارقين ومنها إلى خلاط.

ولّما استولى الجند السلطاني على أموال العرب ودوابهم وسبى نساءهم، بذل سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد الأموال وافتدى اسرى بني عقيل ونساءهم وأولادهم وجهّزهم وردّهم إلى بلادهم.(٣)

التقييم: وحدة القيادة:

أ - إن تكليف قائدين بقيادة حرب واحدة هو أمر يلزمه الكثير من التنسيق بينهما كي لا يتحوّل قتالهما إلى كارثة. فالقائد التركماني أرتق لم ينسّق قتاله مع القائد العربي فخر الدولة بن جهير. فلما مال هذا الأخير إلى المصالحة وحقن دماء العرب في الفريق المقابل، شنّ التركمان ليلاً هجوماً كاسحاً انتهى بانتصارهم.

وعندما حاصر ابن جهير أعداءه داخل آمد، بذل هؤلاء مالاً إلى القائد الآخر، أي أرتق، فأخرجهم من الحصار.

ب - هذه الحقيقة برزت واضحة خلال حروب عديدة في التاريخ العسكري، نذكر منها على سبيل المثال معركة كان التي ربحها القائد القرطاجي هنيبعل السنة ٢١٦ق.م. ضد الرومان. فالجيش الروماني كان بقيادة القنصلين بول إميل وڤارون اللذين يقود كلّ منهما الجيش ٢٤ ساعة يعود بعدها الآخر لقيادته. لذلك كانت معركة كان معركة إبادة شاملة للرومان.

ويمكننا أيضاً ذكر حالات أخرى مماثلة، منها حروب بونابرت ضد الأحلاف الاوروبية التي كانت تعقد ضده. ففيها كان

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٣٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣ - ١٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٨.

بونابرت هوالقائد العام للجيوش الفرنسية، يقابله قادة جيوش متنوّعة من بريطانيا وبروسيا والنمسا وروسيا. أما المعركة الكبرى التي انتصر فيها الحلفاء انتصاراً نهائياً على بونابرت فكانت معركة واترلو. ففي هذه المعركة كانت الجيوش الاوروبية المتحدة بقيادة اللورد ويلينغتون البريطاني. وجرت في ١٨ حزيران السنة ١٨١٥.

وهكذا نرى ان مبادئ الحرب لا تتغير. فمبدأ توحيد القيادة كان صالحاً في حروب هنيبعل وحروب العرب المسلمين وحروب نابوليون بونابرت. فالمبادئ لا تتغيّر، لكن الوسائل والتطبيق تتغيّر مع التقنيات الحديثة.

١٤ عصيان تتش مجدداً على أخيه السلطان ملكشاه

كان تتش بن ألب ارسلان قد صالح أخاه السلطان ملكشاه. فلما كانت السنة سبع وسبعون وأربعمائة رأى ابتعاد السلطان عنه، كما حسّن له أصحابه الخروج على طاعة أخيه، فأجابهم إلى ذلك وسار معهم، فملك مرو الروذ وغيرها. ثمّ حاصر قلعة سرخس، وهي لمسعود ابن الأمير ياخز وقد حصّنها جيداً. لكن تتش شدّد الحصار عليها وكاد أن يسقطها.[١]

وكان أبو الفتوح الطوسي صديق الوزير نظام الملك بنيسابور، وخطّه يشبه خط نظام الملك. فاتفق مع أبي علي عميد خراسان على ان يكتب رسالة إلى مسعود يقول فيها أن السلطان ملكشاه ونظام الملك موجودان على رأس جيش كبير في الري وسيصلان قريباً إلى قلعة سرخس. لذلك على مسعود حفظ القلعة لحين وصولهما.[٢] وأُرسلت الرسالة مع رسول أمين طُلب منه ان يقع في أسر قوات تتش ولا يعترف بوجود رسالة معه إلاّ بعد ضربه ضرباً مبرحاً. وحينذاك يخبرهم انه فارق السلطان ونظام الملك بالري في العساكر.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٣٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٣.

وهكذا قبض جند تتش على الرسول الذي نفذ مهمّته وفقاً للتعليمات المعطاة له. فلما اطلع تتش على فحوى الرسالة سار مع جيشه بسرعة وترك خيامه حول القلعة مع دوابه والقدور على النار، وعاد إلى قلعة «ونج». فنزل مسعود وجنوده من القلعة واستولوا على ما تركه جيش تتش.(١)

التقييم: أهمية الاستخبارات:

أ - أرسل أبو الفتوح رسالة خادعة بقصد وقوعها في يد تتش بن ألب ارسلان لخداعه وجعله يرفع الحصار عن قلعة سرخس خوفاً من وصول جيش السلطان وملكشاه بسرعة إليها فيقضي على جيشه، علماً أن جيش السلطان كان غير جاهز للتوجّه إلى مكان القتال.

وهكذا أعطت الخدعة الاستخباراتية النتيجة المتوخاة منها.

ب - وهنا نعود إلى التأكيد على أهمية الاستخبارات في الحروب والتي لها دور مزدوج يقضي بـ:

١ - الاستعلام عن العدو ومعرفة كلّ التفاصيل عن جيشه وعديده وأسلحته ونواياه.

٢ - منع العدو عن الحصول على معلومات عن الوحدات الصديقة.

وضمن الفقرة الثانية تأتي مهمّة خداع العدو وإعطائه معلومات مغلوطة عن الوحدات الصديقة.

هذا المفهوم الاستخباراتي الذي طبّق بنجاح ضد تتش ما زال يعتبر من الوسائل الأساسية في عمل استخبارات الجيوش الحديثة. والأمثلة على إرسال رسائل مغلوطة بقصد وقوعها في يد العدو وخداعه بالنسبة إلى نوايا القيادة كثيرة ومتعدّدة، ومنها ما يبث حالياً في اللاسلكي أو الأجهزة الالكترونية الحديثة. والاستخبارات الناجحة هي التي تستطيع التمييز ما بين الخبر الصحيح والخبر الخادع وذلك عن طريق مقاطعة المعلومات الواردة إليها من أحد المصادر مع المعلومات من مصادر أخرى. لذلك تزداد أهمية عملاء

(١) المرجع نفسه، ص ٤٣٥.

الاستخبارات في الجيوش الحديثة، ومنهم من لعب دوراً مهماً في العلاقات بين الدول والجيوش، كالجاسوسة ماتاهاري على سبيل المثال.

هذا الموضوع يدخل ضمن اختصاص أجهزة المخابرات، وهو مفصّل بدقّة في موسوعة أخرى من موسوعاتنا.(١)

١٥ - فتح سليمان بن قُطلمش(٢) انطاكية

كان سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك قرسة وأقصرا وأعمالها من بلاد الروم. وكانت انطاكية في يد الروم منذ السنة ٣٥٨هـ، وملكها يدعى الفردوس الذي أساء السيرة إلى جنده ورعاياه وتنكّر لابنه وحبسه قبل أن يسير عنها إلى بلاد الروم، ويكلف القائد «شحنة» بتوليها.(٣)

اتفق ابن الفردوس والقائد شحنة على تسليم المدينة إلى سليمان بن قطلمش فكاتباه واستدعياه، فسار إليهما في البحر في جيش من الرجالة ومعه ثلاثمائة فارس.(٤) ثمّ نزل بجيشه إلى البر وسار في جبال وعرة ومضائق شديدة حتى وصل إلى أمام انطاكية، فنصب السلالم باتفاق مع الشحنة، وصعد جيشه إلى السور ودخل المدينة. لكن أهل انطاكية قاتلوا جيش سليمان الذي هزمهم وقتل كثيراً منهم. ثمّ عفا عنهم وتسلّم القلعة المعروفة بـ«القسيان» وأخذ من الأموال الشيء الكثير.(٥)

ثمّ أرسل سليمان يُعلم السلطان ملكشاه بملكية مدينة انطاكية، فهنّأه السلطان بذلك.

وأحسن سليمان إلى الرعية وأمرهم بعمارة ما خرب ومنع أصحابه عن النزول في الدور واحتلالها.

---

(١) للمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى موسوعة المخابرات في العالم، إنتاج دار نوبليس.

(٢) في ابن الأثير: قتلمش.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤.

(٤) في ابن خلدون: ثلاثمائة ألف فارس. وهذا مستبعد.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨،، ص ٤٣٦.

التقييم:

- تمّ فتح مدينة انطاكية «فتحاً يسيراً» وذلك بسبب ممالأة قائد المدينة المسلمين على هذا الفتح.

لقد سبق وأوردنا أمثلة كثيرة في موسوعتنا هذه عن حالات مماثلة، حين كان قائد قلعة أو حصن أو مدينة ما يتفق مع الجيش الذي يحاصرها على تسليمها. وأحياناً كان الاتفاق يجري مع بعض المدافعين عن القلعة أو المدينة الذين يفتحون الأبواب الموجلين بحمايتها ليلاً لدخول المحاصِرين إليها، أو يدلّون هؤلاء إلى أجزاء من السور يسهل هدمها كونها غير متينة البناء.

هذه الحالات التي سجّلت تُعتبر حالات خيانة لسكان المدينة أو القلعة. إلاّ أنّ حالات أخرى سجّلت كان هدف المفاوضين منها تخفيف معاناة المحاصَرين وحقن الدماء، خاصة عندما يكون الجيشان المتقابلان جيشين إسلاميين أُسوة بسكان المدينة.

أما في بداية الفتوحات الكبرى فقد كان الوضع مختلفاً، إذ إنّ فتح المدن كان يجري بإحدى طريقتين:

أ - أما صلحاً. وفي هذه الحال كان السكان يحافظون على أملاكهم ولا يُلزمون باعتناق الدين الإسلامي، بل يمكنهم البقاء على دينهم السماوي مقابل دفع الجزية. وهكذا يدخلون في ذمّة المسلمين الذين يدافعون عنهم في حال تعرّضهم لأي خطر.

كانت أول مدينة لبنانية فتحت صلحاً هي مدينة بعلبك التي سبق وأوردنا نص كتاب الأمان الذي أعطاه أبو عبيدة بن الجراح إلى أهلها، والذي أصبح مثالاً لكتب أمان باقي المدن.

ب - وأما عنوة. وفي هذه الحال تصبح كلّ أملاك المدينة ملكاً للمسلمين الذين يمكنهم سبي النساء والأولاد. وتدعى المدينة المفتتحة عنوة «دار الحرب»، فيما المدينة المفتتحة صلحاً تدعى «دار السلام».

١٦ - القتال بين سليمان بن قطلمش وشرف الدولة

كان الفردوس صاحب انطاكية يرسل الجزية عن أهل المدينة قبل فتحها من قبل المسلمين إلى شرف الدولة مسلم بن قريش.

فلما ملك المدينة سليمان بن قطلمش أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال. امتنع سليمان عن ذلك لأن الجزية يعطيها غير المسلم، أما المؤمن فغير ملزم بدفعها.(١)

سار شرف الدولة إلى انطاكية فنهب نواحيها، فردّ سليمان بنهب نواحي حلب، فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم، فأعادوه.(٢)

ثمّ جمع شرف الدولة جيشاً كبيراً من العرب والتركمان الذين كانوا بقيادة الأمير جبق(٣) أمير التركمان، وسار إلى انطاكية ليحاصرها. فلما سمع سليمان الخبر جمع جيشه وسار إليه، فالتقيا في الرابع عشر من صفر العام ثمان وسبعين وأربعمائة للهجرة في ضواحي انطاكية، حيث جرى قتال عنيف بين الجيشين مال خلاله تركمان جبق إلى سليمان فانهزم شرف الدولة مع العرب الذين كانوا في جيشه. ولاحقه جيش سليمان فقتل عدداً كبيراً من جنده، وكان شرف الدولة بين القتلى.(٤)

وسار سليمان بن قطلمش إلى حلب وحاصرها، لكنها امتنعت عليه فرحل عنها.

التقييم:

أ - اعتبر فتح انطاكية على يد سليمان بن قطلمش وتبعيتها للمسلمين خسارة مالية لشرف الدولة الذي كانت تحمل إليه أموال الجزية من صاحبها البيزنطي.

ب - هذا الوضع تكرّر مرات عدّة في التاريخ الإسلامي. فالذمّي الذي يعتنق الإسلام تسقط عنه الجزية. وهذا ما شكا منه أحد ولاة العراق، عندما راح أهل العراق يعتنقون الإسلام ديناً باعدادٍ كبيرة مما خفّض كميات الأموال التي يجبيها الوالي الذي كتب يعلم الخليفة عمراً بن الخطاب بذلك ويطلب منه الموافقة على منع ذلك.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٣٦.

(٣) ابن خلدون: جق.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥.

وكان جواب الخليفة له أن «الله قد أرسل محمداً ﷺ نبياً وليس جابياً». فالدخول في الإسلام هو أهم من دفع الجزية.

١٧ - استيلاء فخر الدولة بن جهير على آمد

في السنة ثمان وسبعين وأربعمائة للهجرة أرسل فخر الدولة بن جهير ولده زعيم الرؤساء أبا القاسم، ومعه جناح الدولة المعروف بالمقدّم السالار إلى آمد لفتحها.[١] فلما وصل الجيش إليها وجدها منيعة جداً فحاصرها واقتلع كرومها وبساتينها، فعمّ أهلها الجوع وفقدت الأقوات وكاد سكّانها يهلكون من الجوع وهم صابرون على الحصار غير مكترثين به.[٢]

ثمّ اتفق ان بعض جند المدينة نزل من السور لحاجة لهم وتركوا أسلحتهم مكانها، فصعد إلى ذلك المكان عدد من العامة تقدّمهم رجل من السواد يعرف بأبي حسن، فلبس السلاح ووقف في ذلك المكان ونادى بشعار السلطان. وفعل من معه مثل فعله، ودعوا زعيم الرؤساء فأتاهم وملك المدينة. واتفق أهل المدينة على نهب بيوت النصارى كونهم كانوا عمّال ابن جهير وكانوا يظلمون الناس.[٣]

التقييم:

أ - نلاحظ في هذه المعركة أيضاً أن اهمال بعض الجند القيّمين على حماية المدينة أدى إلى سقوطها في يد الذين كانوا يحاصرونها. فزعيم الرؤساء كان قد تأكّد من صعوبة فتح المدينة، لذلك قرّر فرض الجوع على سكانها الذين صمدوا رغم ذلك. لكن مغادرة بعض الحراس أمكنتهم على السور مكّنت بعض العامة من احتلالها والاعتراف بسلطة السلطان الذي نادوا بشعاره فسقطت المدينة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٠.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٤ - ٩٨٥.

ب - كما تمكننا ملاحظة أمر آخر ليس لمصلحة المحاصَرين داخل المدينة، وهو أنّ سكانها غير راضين عن ولاتهم نظراً إلى جورهم ومعاملتهم السيئة لهم. لذلك، عندما سقطت المدينة، نهبوا بيوت هؤلاء انتقاماً منهم.

ج - وهذان الأمران شائعان خلال المعارك، فكلّ إهمال في الحراسة أو المدافعة قد يؤدي إلى كارثة ينتهي فيها القتال لمصلحة الخصم. من هنا يأتي دور القادة الذين يكثّفون دوراتهم التفتيشية على الحرّاس كي لا يحصل ما حصل في معركة آمد.

أما إنعدام الثقة بين الجيش الذي يدافع عن مدينة ما وسكانها، فهو أيضاً أمر خطير قد يؤدي إلى كارثة، إذ إن أهل المدينة قد يتصلون بالعدو ويرشدونه إلى طريقة للدخول إليها. وقد حصل ذلك في معارك عديدة سبق الحديث عنها في هذه الموسوعة.

١٨ - ملك فخر الدولة ميافارقين وجزيرة ابن عمر

وفي السنة نفسها استولى فخر الدولة على ميافارقين وجزيرة ابن عمر وانقضت دولة بني مروان.(١)

وكان فخر الدولة بن جُهير، لمّا بعث إبنه إلى آمد، سار بنفسه إلى ميافارقين وأقام على حصارها منذ السنة سبعة وسبعين وأربعمائة للهجرة. ثمّ بعث السلطان إليه مدداً بقيادة سعد الدولة كوهرائين، فشدّد الحصار عليها، فسقط في أحد الأيام جانب من سورها. فلمّا رأى أهلها ذلك نادوا بشعار ملكشاه وسلموا المدينة إلى فخر الدولة، الذي دخلها واستولى على كلّ أموال بني مروان وذخائرهم وأرسلها إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء.(٢)

ثمّ سار فخر الدولة وكوهرائين بجيشهما إلى بغداد، وأرسل فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة ابن عمر، وهي لبني مروان أيضاً،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٨٦، وجزء ٦ ص ٩٨٥.

فحاصرها. فثار أهل بيت من سكانها يقال لهم بنورهان[1] وهم من أعيان المدينة، فقصدوا باباً صغيراً من أبوابها يقال له «باب البوبية» لا يسلكه إلاّ الرجالة لأنه يُصعد إليه من ظاهر البلد بدرج. وهكذا كسر هؤلاء الباب وأدخلوا الجند المحاصر إلى المدينة فملكها. ودعا أهل المدينة للسلطان ملكشاه.[2]

وانقرضت بذلك دولة بني مروان، ولحق منصور بن نظام الدين بالجزيرة وأقام في إيالة الغزّ.

التقييم:

- إن ما حصل في جزيرة ابن عمر يثبت ما جئنا به في الفقرة السابقة من أنّ سكان المدينة يمكنهم تغيير مجرى المعركة بسبب نقمتهم على حاكمها. فالباب الذي ادخل منه بنورهان عسكر فخر الدولة إلى المدينة هو باب صغير يستعمله الرجّالة فقط ويتعذّر على الفرسان ولوجه. لذلك لم يكن هذا الباب مهماً في مخطط الدفاع عن المدينة التي سقطت بسبب إهمال الدفاع عنه.

لذلك، على القائد مراقبة كلّ مداخل المدينة التي يكلف الدفاع عنها. كذلك تنبغي مراقبة السكان كي لا يحصل كما حصل خلال المعركة حول جزيرة ابن عمر.

١٩ - حصار حلب وفتحها من قبل تتش بن ألب ارسلان

في العام تسع وسبعين واربعمائة للهجرة، وبعد ان قتل سليمان بن قطلمش شرف الدولة، أرسل إلى مقدم مدينة حلب ابن الحتيتي[3] العباسي يطلب منه تسليم المدينة إليه. استمهله ابن الحتيتي وأرسل إلى تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق يعده بأن يسلم إليه حلب، فسار تتش إلى حلب التي قصدها أيضاً سليمان، كلّ منهما على رأس جيش كبير.[4]

(١) في ابن الأثير: بنو وهبان.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٠.
(٣) في ابن خلدون: الحثيثي.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء١٢، ص ١٤٣.

وكان الأمير أرتق في جيش تتش، وكان قائداً ناجحاً لم يشهد حرباً إلاّ وظفر بها.

التقى جيش سليمان بجيش تتش الذي لم يكن على تعبئة، لكن القائد أرتق حرّض جند تتش على القتال، فجرت معركة عنيفة انهزمت فيها ميمنة وميسرة سليمان الذي ثبت مع جنده في القلب. لكنه، عندما رأى انهزام باقي جيشه أخرج سكيناً وقتل نفسه، وقيل إنه قُتل خلال المعركة. واستولى تتش على معسكر سليمان فقوي به.(١)

ثمّ طلب تتش من ابن الحتيتي تسليم حلب إليه فاستمهله كي يكاتب السلطان ويسأله عن الأمر، فحاصر تتش المدينة وضيق على أهلها، فنظم ابن الحتيتي الدفاع عنها وسلّم كلّ برج من أبراجها إلى أحد أعيانها ليحفظه. وسلّم أحد الأبراج إلى قائد يعرف بـ«ابن الرعوي» كان رجلاً شديد القوة لم يتفق مع الحتيتي. كما أن ابن الرعوي رأى ما في الناس من الشدة، فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تتش يستدعيه. وواعده في أحد الليالي على أن يرفع الرجال إلى السور في الحبال ويدخلهم إلى المدينة.(٢)

وبالفعل، حضرت مجموعة من جيش تتش في الوقت المحدّد إلى جانب البرج الخفي فأصعدهم ابن الرعوي في الحبال والسلالم، فدخلوا حلب حيث جرى قتال داخلها انتهى بملك تتش لها. أما قلعتها فكانت بقيادة قائد اسمه سالم بن مالك بن بدران، وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش. قرّر القائد المقاومة، فحاصر جيش تتش القلعة سبعة عشر يوماً من دون أن يتمكّن من فتحها. ثمّ بلغه وصول مقدّمة جيش أخيه السلطان ملكشاه، فرحل عن مدينة حلب.(٣)

التقييم:

من دراسة هذه المعركة يمكننا استنتاج أمرين:

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥ - ١٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٧، وجزء ٩، ص ١٧.

الأمر الأول: لقد سقطت المدينة في أيدي المحاصرين بسبب خيانة أحد الموجين بحمايتها. وهذا ما حصل سابقاً في حصار مدن أخرى سبق الحديث عنها.

الأمر الثاني: عندما قرّر قائد القلعة وصمّم على الدفاع عنها، تمكّن من الصمود طوال سبعة عشر يوماً في انتظار وصول جيش السلطان ملكشاه. لذلك نعود لنؤكّد أن التصميم على القتال والاندفاع في سبيل قضية ما هما من العوامل الأساسية التي تؤمن الانتصار في المعركة. أما التخاذل والخيانة، فانهما يؤدّيان دائماً إلى الهزيمة.

٢٠ - حملة السلطان ملكشاه على حلب وجوارها

سبق الحديث عن بلوغ مقدّمة جيش السلطان ملكشاه مشارف مدينة حلب. وكان السلطان، وبعد دعوة صاحب حلب لتسلّمها، سار إليها من أصبهان في منتصف السنة تسع وسبعين وأربعمائة للهجرة، وعلى مقدّمته الأميران بُرشق وبدران[١] وغيرهما من الأمراء. وجعل طريقه على الموصل، فملكها، وسار منها إلى حرّان فسلّمه إياها صاحبها.[٢]

وسار السلطان من حرّان إلى الرها، وهي في يد الروم الذين كانوا قد اشتروها من ابن عطية،[٣] فحاصرها وملكها. ثمّ سار إلى قلعة جعبر التي سميت على اسم صاحبها، وهو شيخ كبير أعمى، وكان مع ولديه يستقبلون قطاع الطرق الذين يلوذون إلى القلعة ويتحصّنون بها. راسل السلطان جعبر في تسليم القلعة فتمنّع، فنصب عليها المنجنيقات والعرادات وشدّد الحصار عليها حتى افتتحها وقتل صاحبها ومن فيها من بني قشير.[٤]

ثمّ ملك السلطان مدينة منبج بعد أن عبر الفرات نحو حلب، فلمّا قارب المدينة رحل

(١) في ابن الأثير: برسق وبوزان.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٣.

(٣) في ابن كثير: عطير.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٣.

عنها أخوه تتش بعد أن كان قد افتتحها. وأشار القائد ارتق على تتش بمهاجمة عسكر السلطان الذين كانوا قد اجتازوا مسافة طويلة وقاموا بمعارك عديدة مما عرّضهم للتعب، فرفض تتش مهاجمة أخيه. وقيل إنه كان سينتصر عليه في حال مهاجمته إياه.(١) وسار الأمير تتش إلى دمشق.

ولمّا وصل السلطان إلى حلب تسلّمها، وسلمت إليه القلعة، بعد أن امتنع فيها صاحبها سالم بن مالك مدّة، فأمر السلطان بأن يرمي جنده إليه رشقاً واحداً بالسهام. كتب ابن الأثير عن نتيجة هذه الرماية:(٢)

«فرمى الجيش، فكادت الشمس تحتجب لكثرة السهام».

بعد هذه الانتصارات، أرسل الأمير نصرٌ بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر رسولاً إلى السلطان ودخل في طاعته وسلّم إليه اللاذقية وكفرطاب وفامية. فأجابه ملكشاه إلى المسالمة وأقرّه على شيزر.(٣)

استناب السلطان على حلب قسيم الدولة أقسنفر التركي فعمّرها وأحسن السيرة فيها.

التقييم:

من دراسة تفاصيل حملة السلطان ملكشاه على حلب وجوارها تمكننا الإفادة من الدروس التالية:

أ – طبّق السلطان، بوصوله إلى مشارف حلب من دون ان يدري، سياسة «أظهر القوّة كي لا تضطر إلى استعمالها». فعندما وصلت طليعة جيشه إلى مقربة من جيش أخيه تتش، انسحب هذا الأخير فتوصّل السلطان إلى غايته من دون قتال.

ب – ينبغي عدم إدخال العلاقات الشخصية في المعطيات التي تفرض دخول المعركة أو عدمه. فالأمير تتش، وفق رأي القائد أرتق، كان عليه مهاجمة جيش السلطان فور وصوله، لكنه لم يفعل لأن ملكشاه هو شقيقه، فخسر الحرب.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٤.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨.

ج - أمر السلطان برمي رشق واحد بالسهام، «فكادت الشمس تحتجب من كثافة الرمي». وهذا ما أعطى نتيجة فعّالة، إذ استسلم صاحب قلعة حلب.

لقد شكّلت كثافة النيران في مختلف الحروب عبر التاريخ العسكري عاملاً أساسياً في تقرير مجرى المعركة. فالتأثير المعنوي والتدميري الذي تحدثه هذه الكثافة قد ينهي المعركة أو يساعد المهاجمين في إنجاح مناورتهم. وهذا الرمي الذي ينفّذ قبيل المعركة يدعى في العلم العسكري «الرمي التحضيري». أمّا مدّته، فقد تغيّرت مع الزمن، إذ إنه كان يدوم دقائق عدّة في حروب الدولة الفارسية، ويبلغ أياماً عدّة في الحرب العالمية الثانية. أما في أيامنا هذه فان الرمي التحضيري الذي يتحوّل أيضاً إلى رمي تدميري، فقد يدوم أسابيع قبل بدء الهجوم العام في المعارك الكبرى.

الفصل الخامس
متابعة العمليات بعد دخول ملكشاه بغداد

بعد أن فتح حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة، دخل السلطان ملكشاه بغداد في ذي الحجة السنة تسع وسبعين وأربعمائة للهجرة، ونزل في دار المملكة، وأهدى للخليفة هدايا كثيرة واجتمع به ليلاً. ثمّ دخل إلى مجلسه نهاراً وافيضت عليه الخلع.(١)

وكانت هذه المرة الأولى التي يدخل السلطان مع جيشه إلى بغداد، فزار المشاهد والقبور(٢) وقبّل يد الخليفة ووضعها على عينيه، ففوّض إليه الخليفة أمور الناس. وعرض أمراءه ونظام الملك واقف بين يديه يعرّفه بهم واحداً إثر واحد، ذاكراً اسمه وعدد جيشه واقطاعه. ثمّ توجّه السلطان إلى مدرسة النظامية وزار خزانة كتبها واستحسنها.(٣)

وأمر السلطان بأن يزاد في إقطاع وكلاء الخليفة نهر برزى من طريق خراسان، وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد. كما أقطع محمداً بن شرف الدولة مدينة الرحبة وأعمالها وحرّان وسروج والرقّة والخابور، وزوجه بأخته زليخاخاتون.(٤)

وكان السلطان ملكشاه قد زوّج ابنته من الخليفة المقتدي السنة أربع وسبعين وأربعمائة للهجرة. فلما كانت السنة

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٨.

(٢) زار السلطان بصورة خاصة قبري ابن حنبل وأبي حنيفة صاحبي المذهبين المشهورين.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٤.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

ثمانين وأربعمائة نقل إلى دار الخلافة جهازها الذي وصفه ابن خلدون كما يلي:(١)

«نقل الجهاز للزفاف إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجلّلة بالديباج الرومي، أكثرها ذهب وفضة، ومعه ثلاث عماريات، ومعها أربع وسبعون بغلاً مجلّلة بأنواع الديباج الملكي، وقلائدها الذهب، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضّة مملوءة بالحلي والجواهر، ومهد عظيم من ذهب. وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والأمير ارتق وغيرهما من الأمراء، والناس ينثرون عليهم الدنانير والثياب...».

وفي السنة نفسها جعل السلطان ولي عهده أبا شجاع أحمد ولقبه «ملك الملوك عضد الدولة»، وأرسل إلى الخليفة ليخطب له ببغداد بذلك، فخطب له ونثر الذهب على الخطباء.(٢)

لقد أوردنا ما أوردناه أعلاه لنظهر مدى الغنى الذي كانت تنعم به الخلافة والسلطنة في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العباسية.

وهذا الغنى مصدره الغنائم من الحروب والوقائع التي كان ينتصر فيها السلطان وجيوش الخلافة، والتي كانت تؤمن الذهب والفضة والنفائس وقطعان الماشية والأموال التي كانت تتكدّس في بيوت مال الخليفة والسلطان والقادة والأمراء.

١ – الفتنة في بغداد

ذكر ابن خلدون حال بغداد والعوامل التي أدت إلى قيام الفتن فيها، فكتب:(٣)

«كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدء الخليقة فيما علمناه. واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن وكثر فيها المفسدون والدعّار والعيّارون من الرها، وأعيا على الحكام امرهم، وربما اركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً. وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب، ومن أهل السنة والشيعة من الخلاف في

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨ – ١٩.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٦.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٨٩.

الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعيّة وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير، ثمّ يفضى إلى الفتنة بين العوام. وتكرّر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولا يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبعدهم عن بغداد. والشوكة التي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم. وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خفّ من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة، ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي. وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همّتهم عن العظائم إليهم. فاستمرّت هذه العلّة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدّتها وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في ردائها لم تذهبه الأيام».

ففي السنة إحدى وثمانين وأربعمائة للهجرة وقعت فتنة كبرى في المدينة بين السنّة والشيعة.[١] وسبب ذلك أن أهل باب البصرة شرعوا ببناء قنطرة جديدة، فنقلوا الآجرّ في أطباق الذهب والفضة، فاجتمع إليهم أهل المحلات وجاءهم أهل باب الازج في خلق كثير.

واتفق أن كوهرائين سار في سميرية[٢] فيما سار أصحابه على شاطئ نهر دجلة يواكبونه. فوقف أهل باب الازج على امرأة كانت تسقي الناس من إبريق لها على دجلة، فحملوا عليها، وفق عادتهم، وجعلوا يكسرون الجرار ويقولون: «الماء للسبيل». فلما رأت المرأة سعد الدولة كوهرائين، استغاثت به، فأمر بابعادهم، فضربهم الأتراك، فسلّ العامة سيوفهم وضربوا وجه فرس حاجبه سليمان، وهو أخص أصحابه، فسقط عن الفرس. خرج كوهرائين من السميرية إليهم راجلاً، فحمل أحدهم عليه وطعنه بأسفل رمحه فألقاه في الماء والطين. ثمّ حمل مرافقوه على العامة فقاتلوهم، وحرصوا على الظفر بالذي طعنه، فلم يصلوا

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٨.

(٢) سميرية: سفينة نهرية.

إليه. وأخذ المرافقون ثمانية من العامة فقتلوا أحدهم وجرحوا ثلاثة.(١)

التقييم:

- لقد استهان كوهرائين بالعامة فطعنه أحدهم ورماه في الوحل. فالغوغائية لا تمكن السيطرة عليها إلاّ بقوّة الجند. لذلك، ففي عمليات حفظ الأمن ضد أعمال الشغب، ينبغي على القائد أن لا يعرّض نفسه، معتقداً أن الغوغائيين قد يحترمونه. فعندما تسود الفوضى، لا تمكن السيطرة على المخلين بالأمن إلاّ بإظهار القوة أو باستعمالها.

٢ - استيلاء ملك الروم على مدينة زويلة في افريقيا

كتب ابن الأثير عن سقوط زويلة بيد الروم:(٢)

«في هذه السنة(٣) فتح الروم مدينة زويلة من إفريقية وهي بقرب المهدية. وسبب ذلك أن الأمير تميم بن المعز بن باديس صاحبها أكثر غزو بلادهم في البحر فخرّبها وشتّت أهلها. فاجتمعوا من كلّ جهة واتفقوا على إنشاء الشواني لغزو المهدية ودخل معهم البيسانيون والجنويون وهما من الفرنج، فأقاموا يعمرون الأسطول أربع سنين. واجتمعوا بجزيرة قوصرة في أربعمائة قطعة، فكتب أهل قوصرة كتاباً على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة. فأراد تميم أن يسيّر عثمان بن سعيد المعروف بالمهر مقدّم الأسطول الذي له ليمنعهم من النزول، فمنعه من ذلك بعض قواده اسمه عبدالله بن منكوت لعداوة بينه وبين المهر. فجاءت الروم وأرسوا وطلعوا إلى البر ونهبوا وخربوا وأحرقوا ودخلوا زويلة ونهبوها، وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عن طاعته. ثمّ صالح تميم الروم على ثلاثين ألف دينار وردّ جميع ما حووه من السبي».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٥٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) سنة ٤٨١ هـ.

٣ - استيلاء السلطان ملكشاه على ما وراء النهر

في السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة استولى السلطان ملكشاه على ما وراء النهر بعد معارك عنيفة ووقعات هائلة.(١)

وسبب ذلك ان صاحب سمرقند أحمد خان ابن شقيق شمس الملك كان ظالماً وقبيح السيرة، ويكثر من مصادرة أموال الرعية الذين نفروا منه وكتبوا إلى السلطان ملكشاه يسألونه القدوم عليهم ليملك بلادهم. وجاء مفتي سمرقند أبو طاهر الشافعي إلى أصفهان، فاجتمع بالسلطان وشكا إليه ظلم أحمد خان.(٢)

قبل السلطان الدعوة وسار من أصبهان إلى خراسان، حيث جمع العساكر وعبر النهر بجيس كبير مستولياً على كلّ البلاد، حتى وصل إلى بخارى فملكها مع ما جاورها. ثمّ سار إلى سمرقند وحاصرها وضيّق على أهلها.

أما أحمد خان، فقد فرّق أبراج سور سمرقند على قادته ومن يثق بهم من أهل المدينة. وسلّم برجاً يقال له «برج العيار» إلى رجل شيعي كان يثق به. فاتفق أن ولداً لهذا الأخير أُخذ أسيراً ببخارى، فهُدّد الأب بقتله، فتراخى في القتال، فسهل الأمر على السلطان ملكشاه الذي رمى السور بالمنجنيقات فهدم بعض أجزائه. ودخل جيشه من الأجزاء المهدومة من السور ومن برج العيار إلى المدينة حيث جرى قتال عنيف سيطر خلاله جيش السلطان على سمرقند.(٣)

هرب أحمد خان واختفى في بيوت العامة، فدلّ إليه أحدهم، فأُخذ أسيراً وحمل إلى السلطان الذي أكرمه وأطلق سراحه وأرسله إلى أصبهان.

ثمّ سار السلطان قاصداً كاشغر، فبلغ بوزكند وأرسل رسلاً إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة له وضرب السكّة باسمه، ويتوعّده إن خالف بالمسير إليه، ففعل وأطاع

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٥٨.

وحضر أمام السلطان الذي أكرمه وأنعم عليه وأعاده إلى بلده.(١)

التقييم:

أ - لقد استعمل السلطان لغة التهديد فأطاعه ملك كاشغر. وهذه اللغة ما زالت تستعمل في أيامنا هذه فتعطي أحياناً نتائج إيجابية، كما تؤدي أحياناً إلى اندلاع الحروب.

ب - من الملاحظ أن السلطان أعاد ملك كاشغر إلى ملكه بعد ان أكرمه وأنعم عليه. فالجيوش الإسلامية لم تكن تبقى في المناطق التي تفتتحها، بل كانت تقرّ أصحابها عليها بعد أن تصطنعهم فيصبحون موالين لها. وذلك لأن ترك حاميات إسلامية في المدن والحصون المفتتحة كان سيحرم الجيوش العربية الإسلامية من قسمٍ من مقاتليها، وبالتالي يضعفها، كما ذكرنا ذلك في غير مكان من هذه الموسوعة.

أما أحمد خان الذي كان سكان سمرقند يكرهونه لظلمه، فإنه عندما لجأ إلى بيت أحد العامة أخبر هؤلاء السلطان عن مكانه فأُلقي القبض عليه.

فالعلاقة بين القائد والشعب ينبغي أن تكون جيّدة كي يساهم الناس في الدفاع عن مدينتهم وعن قائدهم بعزم واندفاع.

٤ - عصيان سمرقند وفتحها

بعد عودة السلطان من سمرقند إلى خراسان، استولى عليها يعقوب تكين شقيق ملك كاشغر الذي كان قد أطاع السلطان وخطب له ببلاده. ومملكة يعقوب تدعى «بأب نباشي».(٢)

واستبدّ يعقوب بسمرقند، بعد أن قتل مقدم العسكر المعروف بالجكلية(٣) واسمه عين الدولة.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٠.

(٢) في ابن خلدون: بارباسي.

(٣) في ابن خلدون: الحُكلية - في ابن الأثير: الجكلية.

وفي السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة قرّر السلطان ملكشاه استعادة السيطرة على سمرقند، فسار إليها من خراسان في جيش كبير. فلما وصل إلى بخارى هرب يعقوب من سمرقند إلى فرغانة وعاد إلى ولايته. ثمّ دخل السلطان إلى سمرقند واستعاد السيطرة عليها وعيّن عليها الأمير «أبر». وسار في أثر يعقوب حتى نزل ببوزكند وأرسل سراياه إلى مختلف المناطق في طلبه. كما طلب السلطان من صاحب كاشغر القاء القبض على شقيقه وإرساله إليه.(١)

وكان عسكر يعقوب قد شغبوا عليه ونهبوا خزائنه واضطروه إلى الهرب إلى أخيه في كاشغر الذي أصبح أمام احتمالين:(٢)

– اما تسليم شقيقه مع ما في ذلك من مهانة.

– أو خلق عداوة مع السلطان ملكشاه.

في هذه الأثناء هاجم طغرل بن ينال مملكة كاشغر واستولى عليها، بعد أن كان ملكها قد سيّر سرية إلى السلطان تحمل إليه شقيقه مكتوفاً. وكان جيش طغرل بن ينال يعد بعشرات الألوف من المقاتلين.(٣)

فلما رأى السلطان الوضع الجديد وطمع طغرل ومسيره إلى كاشغر واحتلالها والقبض على صاحبها، خاف من مواجهته بسبب كثرة عساكره، ورأى أن أفضل الحلول يقضي بترك كلٍّ من طغرل ويعقوب في مواجهة بعضهما فيمنع كلٌّ منهما الآخر عن السيطرة على سمرقند وبلادها. لذلك قرّر العودة إلى خراسان من دون التعرّض لأي منهما.(٤)

وهكذا بلغ السلطان هدفه من دون الاضطرار إلى استعمال القوة.

التقييم: سياسة توازن القوى:

– طبّق السلطان ملكشاه في سمرقند وجوارها سياسة «توازن القوى بين العدوين»، مما يجعلهما في وضع الضعف تجاهه، وذلك بدلاً من مواجهتهما بالقوة.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٥٩.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٥٩ – ٤٦٠.

وسياسة توازن القوى هذه ما زال معمولاً بها في استراتيجيات الدول والجيوش، وهي التي تؤمن استقرار منطقة وجود هذه القوى. ففي هذه الحال يتهيّب كلّ فريق مواجهة الفريق الآخر، ويبقى على استعداد دائم لهذه المواجهة فينشغل بها. ويصبح عاجزاً عن القيام بمبادرات عسكرية خارجية أو بالاستيلاء على مناطق جديدة وضمها إلى ملكه. وهكذا يحافظ القادة المجاورون على استقرار ولاياتهم من دون الاضطرار إلى القيام بجهود عسكرية كبيرة.

هذه السياسة استعملها السلطان ملكشاه بنجاح في منطقة سمرقند، لاسيما ان طغرل ويعقوب عدوّان، ومن المستبعد أن يجتمعا ويتفقا على قتاله.

- طبّقت هذه السياسة في مناطق عديدة من العالم المعاصر بهدف إبقاء الصراع قائماً من دون سيطرة فريق على آخر، ولاسيما في لبنان خلال ما سمي بـ«حرب السنتين» حين كانت مصادر التسلّح والتموين تقوم بتموين الفريق الذي يظهر وكأنه الخاسر في القتال الدائر، وذلك كي يستمر الصراع.

٥ – حملة فاطمية على ساحل بلاد الشام

في السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة استولى الجيش الفاطمي بقيادة مجموعة من المقدّمين على بلدان عدّة من ساحل بلاد الشام.[١]

وكان القاضي عين الدولة بن أبي عقيل قد تغلّب على مدينة صور وملكها وامتنع في داخلها. ثمّ توفي فتولاها أولاده، فحاصرهم الجيش الفاطمي ولم يكن لهم من القوة ما يمتنعون بها، فسلموها إليه. ثمّ سار الجيش المصري إلى مدينة صيدا فحاصرها وضيّق على سكانها وفتحها. وسار منها إلى مدينة عكا فحاصرها حصاراً شديداً بسبب مناعة سورها، لكنه تمكّن من فتحها وفتح مدينة جبيل بعد ذلك.[٢]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٩.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٦٠.

وملك الفاطميون ساحل بلاد الشام من عكا إلى جبيل قبل أن ينسحبوا عائدين إلى مصر بعد أن استعمل أمير الجيوش بدر الجمالي عمالاً على المدن المفتتحة.

التقييم:

- كانت سواحل بلاد الشام منطقة نزاع ما بين الخلافتين العباسية والفاطمية. فتارة كان يجتاحها الفاطميون ويسيطرون عليها، وطوراً كانت تعود إلى السيطرة السلجوقية. ففي السنة ٤٨٢هـ اجتاحتها الجيوش المصرية، وفي السنة ٤٨٤هـ كلّف السلطان شقيقه تاج الدولة تتش باستعادتها فاستعاد بعضاً منها.(١)

- واعتباراً من السنة ٤٩٠هـ دخل عامل جديد في الصراع على بلاد الشام وفلسطين خاصة، هو الحملات الصليبية التي ادخلت الافرنج إلى هذه المنطقة. فأصبح الصراع بين الشرق والغرب وبين المسيحية والإسلام طيلة قرنين من الزمن.(٢)

٦ – الفتنة مجدداً في بغداد

في السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة حصلت فتنة في بغداد أيضاً بين السنة والشيعة، فرفعت المصاحف ووقعت حروب طويلة قتل خلالها عدد كبير من العامة، قيل أنه بلغ مائتي قتيل.(٣)

وتفاصيل الفتنة ان القتال اندلع بين أهل الكرخ الشيعة وسكان مَن جاورهم من المحال السنّة، فقتل عدد كبير من الجهتين. واستولى السنّة على قطعة كبيرة من نهر الدجاج فنهبوها وأحرقوها.(٤)

سار القائد خمارتكين في جيشه إلى المنطقة على نهر دجلة ليمنع الناس عن الفتنة ويحفظ النظام والأمن.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٤٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٦٠.

وفي أحد الأيام وصل أهل البصرة إلى بغداد، فخرج من أهل الكرخ من لم تجرِ عادتهم بالقتال، فقاتلوهم حتى كشفوهم. فركب خدم الخليفة والحجاب والنقباء وغيرهم من أعيان الحنابلة وانضموا إلى جيش خمارتكين الذي انذر أهل الكرخ بالكف عن الفوضى.

كتب ابن الأثير متابعاً احداث الكرخ:[1]

«وساروا معه إلى أهل الكرخ فقرأ عليهم مثالاً من الخليفة يأمرهم بالكف ومعاودة السكون وحضور الجماعة والجمعة والتديّن بمذهب أهل السنّة، فأجابوا إلى الطاعة. فبينما هم كذلك أتاهم الصارخ من نهر الدجاج بأن أهل السنّة قد قصدوهم والقتال عندهم، فمضوا مع الشحنة ومُنعوا من الفتنة وسكن الناس. وكتب أهل الكرخ على أبواب مساجدهم: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ علي». ومن عند هذا اليوم ثار أهل الكرخ وقصدوا شارع ابن أبي عوف ونهبوه. وفي جملة ما نهبوا دار أبي الفضل بن خيرون المعدّل، فقصد الديوان مستنفراً ومعه الناس. ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته وأكثروا من الكلام الشنيع. وقتل ذلك اليوم رجل هاشمي من أهل باب الأزج بسهم أصابه، فثار العامة هناك بعلوي كان مقيماً بينهم فقتلوه وحرقوه، وجرى من النهب والقتل والفساد أمور عظيمة. فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة بن مزيد، فأرسل عسكراً إلى بغداد فطلبوا المفسدين والعيارين فهربوا منهم فهُدمت دورهم وقُتل منهم ونفي وسكنت الفتنة وأمن الناس».

التقييم:

- يبدو أنّ الصراع المذهبي كان متأججاً داخل مدينة بغداد، وإنّ حي الكرخ كان يقطنه الشيعة الذين كانوا يثورون على من جاورهم من السنّة.

وما أجّج هذا الصراع أن السلطنة السلجوقية التي كانت تقوم خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي بحماية

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦١.

الخلافة، كانت على المذهب السني، فيما أن العصر العباسي الثالث كان يمتاز بسيطرة آل بويه الشيعة على مقدارات الخلافة العباسية.

- يضاف إلى ذلك أن العامة كانت تتحرّك للنهب والسرقة عند قيام الفتنة من دون أن تكون لهم أهداف طائفية أو مذهبية، أو حتى سياسية.

من هنا تأتي خطورة بداية الفتن في المدن التي قد تتحوّل بسرعة إلى ثورة تجتاح كلّ شيء. لذلك، وعند بداية الشغب، على القوى الأمنية التدخل بسرعة ووقفه ومنع الغوغاء عن التدخّل فيه وتوسيع نطاقه.

٧ - ملك العرب مدينة سوسة والتراجع عنها

في السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة نقض ابن علوي ما كان بينه وبين تميم بن المعزّ بن باديس صاحب افريقيا من اتفاق هدنة، وسار في جمع من عشيرته العرب إلى مدينة سوسة من أعمال افريقيا. وكان أهل سوسة غير جاهزين للدفاع عن مدينتهم التي حاصرها ابن علوي وفتحها عنوة بعد أن جرى بين جيشه ومن بها من العسكر والعامة قتال عنيف قتل فيه من الجانبين عدد كبير. ولما كثر القتل والأسر في أصحاب ابن علوي، علم أنه لن يتمكّن من البقاء في سوسة، لذلك تراجع عنها وعاد إلى بلاده في صحراء افريقيا.(١)

التقييم: تطبيق مبادىء الحرب:

أ - لم يطبّق ابن علوي المبدأ الأول من مبادىء الحرب الذي ينص على «نسبية الأهداف إلى الوسائل». فإمكاناته لم تكن تؤهّله للدخول في صراع مع إبن باديس صاحب افريقيا، ولا حتى مع أهل مدينة سوسة وجندها. لذلك خسر معركته وانسحب.

فالقائد الناجح يختار هدفه في شكل يكون مناسباً مع إمكاناته. أما القادة الذين أخلّوا بهذا المبدأ عبر التاريخ وحاربوا قوى تفوق قواتهم في العدد والإمكانات

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٦٢.

وانتصروا، فقد عوّضوا عن ذلك بمزايا وقواعد استراتيجية أهمها:
- وحدة القيادة.
- إمكانات القائد وعبقريته وقيمة معاونيه.
- نوعية الجند وتمرّسهم بالقتال.
- حرية المناورة والعمل.
- حراكية الوحدات العسكرية وسرعة تحرّكاتها.
- نوعية السلاح والعتاد المستعمل.
- قوّة الحوافز ومعنويات الجند.
- حسن استعمال الأرض.
- استغلال عنصر المفاجأة.
- إخفاء النوايا عن العدو.
- حسن استعمال الاستخبارات في الحرب.

إلى ما هنالك من العوامل التي تساهم في كسب المعركة.

ب - إن القادة الذين لم يطبقوا المبدأ الأول في الحرب وربحوا معاركهم صنّفهم التاريخ العسكري ضمن كبار القادة عبر العصور، ومنهم هنيبعل والاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابوليون بونابرت. ومن القادة العرب خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وسعد بن أبي وقاص وطارق بن زياد وعقبة بن نافع وعبد الرحمن الغافقي وغيرهم.

ج - ونظراً إلى أننا ذكرنا المبدأ الأول في الحرب، فاننا نذكر أيضاً المبدأ الثاني الذي يفرض على القائد الاحتفاظ دائماً خلال المعركة بـ«حرية العمل»، أي ان تكون المبادرة في التحرّك والمناورة في يده وليست مع خصمه، وأن يكون في إمكانه زجّ كلّ وحداته في المعركة قبل انتهائها. أما المبدأ الثالث الذي هو «الحصيل الأقصى للوسائل»، فيفرض حسن استعمال القوى التي تكون متوافرة لدى القائد وأخذ أقصى المجهود منها.

إن تطبيق هذه المبادىء الثلاثة في الحرب يساهم في نجاح مناورة القائد وربحه لمعركته، والقائد الكبير هو من يعمل على تطبيقها جميعها فينجح في مسيرته المهنية.

٨ - نهب العرب البصرة

في السنة ثلاث وثمانين وأربعمائة للهجرة نهب العرب البصرة بعد أن أغراهم بذلك رجل من سواد النيل اسمه

تلياً[1] ادعى معرفة النجوم والغيب. وكان تليا قد طُرد من بغداد كونه قام فيها بسرقات عدّة، فاتصل بأمير من أمراء العرب من بني عامر يقطن قرب الاحساء وحسّن له نهب البصرة بعد أن أشاد بإنجازات جدوده.[2]

وبالفعل، جمع هذا الأمير من العرب ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل وقصد البصرة وفيها العميد عصمة، وليس معه من الجند إلاّ اليسير، لأن المدينة كانت دوماً آمنة بفضل هيبة السلطان ملكشاه.[3] خرج العميد إلى العرب في أصحابه وحاربهم، ولم يمكّنهم من دخول البصرة، إلى أن أتاه من أخبره أن أهلها يريدون أن يسلّموه للعرب فخاف وفارق البصرة إلى الجزيرة التي هي معقله.

ولمّا علم أهل المدينة بذلك فارقوا ديارهم وانصرفوا، فدخلها العرب وقد قويت نفوسهم، فملكوها ونهبوها خلال النهار، فيما نهبها أصحاب العميد عصمة ليلاً وأحرقوا مواضع عدّة منها.[4]

وكان مما أحرقوه داران للكتب، الأولى أنشئت أيام عضد الدولة بن بويه، وهي أول دار وقفت في الإسلام. والثانية وقفها الوزير أبو منصور بن شاء مردان، وفيها من نفائس الكتب الشيء الكثير.[5]

عند هذا الحد، انحدر سعد الدولة كوهرائين وسيف الدولة صدقة بن مزيد إلى البصرة فوجدا أن العرب قد فارقوها.[6]

التقييم: الشائعات في الحرب:

أ - في إطار ما جرى في البصرة يمكننا التركيز على قضية الشائعات خلال الحرب والتي تؤثر سلباً أو إيجاباً في الجيوش. فالشائعة يطلقها عادة أحد الأجهزة التابعة

---

(١) في ابن كثير: بليا.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٦٥.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٠.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٦٥.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٠.

(٦) ألقي القبض على المدعو تاليا في البحرين سنة ٤٨٤هـ فصلب.

لجيش ما تهدف إلى زعزعة معنويات الخصم أو إلى خلق أجواء داخل صفوفه غير مؤاتية لمتابعة الصراع.

ب - لقد أطلقت شائعة خلال تصدّي العميد عصمة وأصحابه للعرب الذين كانوا يهاجمون البصرة، ممّا زعزع دفاعهم ومكّن المهاجمين من الدخول إلى المدينة ونهبها.

ج - ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عديدة عن دور الشائعات في القتال. ويكفي ان نشير إلي تلك التي أطلقت خلال حرب السنتين في لبنان، والتي كانت تؤدّي دائماً إلى ردود فعل سلبية ودموية مما يؤجّج القتال ويزيد من حدّته ودمويته.

د - فالشائعات في القتال تدخل في إطار الحرب النفسية التي يشنّها كلّ فريق ضد الفريق الآخر.

٩ - احتلال الفرنج جزيرة صقلية

في السنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة للهجرة ولّى العزيز صاحب افريقيا على جزيرة صقلية يوسف بن عبدالله بن محمد بن أبي الحسن. ثمّ استناب يوسف ابنه جعفراً الذي بقي ضابطاً للبلاد حتى السنة خمس وأربعمائة، حين ثار عليه أخوه علي بجمع من البربر والعبيد.

جنّد جعفر جنداً من المدينة، فجرى قتال بينه وبين شقيقه انتصر فيه جعفر وقُتل من العبيد والبربر خلق كثير، وهرب من بقي منهم، وقتل علي. أمر جعفر بأن ينفى كلّ بربري في الجزيرة، فأُرسلوا إلى افريقيا. وقُتل كلّ العبيد في صقلية، فأصبح جيش جعفر بكامله من أهل البلاد.[١]

بعد مدّة طمع أمراء الجزيرة فثاروا على جعفر وخلعوه وأرادوا قتله، بعد أن زحف أهل البلد جميعاً عليه وحاصروه في قصره. لكنّ والده يوسف خرج إليهم في محفة واسترضاهم، وكانوا محبين له، فطلبوا أن يستعمل عليهم ابنه أحمد المعروف بالأكحل، ففعل.

ضبط الاكحل الوضع في الجزيرة وأرسل سراياه إلى المناطق التي يسيطر عليها الروم،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

فكانوا يغيرون عليها ويحرقون ويغنمون ويسبون ويخربون البلاد، فأطاعته كلّ قلاع صقلية التي يسيطر عليه المسلمون.

وفي السنة سبع وعشرين وأربعمائة ظلم الأكحل أهل صقلية واستعمل الافريقيين من جنده في إخضاعهم، فسار هؤلاء إلى المعزّ بن باديس وشكوا له ما حلّ بهم، وطلبوا أن يكونوا في خدمته كي لا يسلموا البلاد إلى الروم. أرسل ابن باديس معهم ولده عبدالله في جيش دخل المدينة وحاصر الأكحل. ثمّ أن أهل صقلية قرروا مقاتلة جيش المعزّ فاجتمعوا وزحفوا إليه، واقتتلوا فانهزم عسكر المعز وقتل منهم ثمانمائة رجل وعادوا في المراكب إلى افريقيا.[1]

ولّى أهل صقلية عليهم «حسناً الصمصام» شقيق الأكحل، فاضطربت الأمور وانفصلت المناطق في مازر وطربنش وقصريانة وجرجنت وسرقوسة وقطانية. وسيطر على سرقوسة وقطانية ابن الثمنة الذي تمكّن من الاستيلاء على أكثر الجزيرة. إلاّ أن القائد علياً بن نعمة المعروف بابن الحواس ثار عليه وقاتله، فانهزم ابن الثمنة وتبعه ابن الحواس إلى مدينة قطانية، فقتل من أصحابه عدداً كبيراً.

قرّر ابن الثمنة الاستعانة بالفرنج في صراعه من أجل السيطرة على الجزيرة، فسار إلى مدينة مالطة، وكان ملكها «رجّار» الفرنجي في جمع من الفرنج، فاتفق معه على تمليكه الجزيرة. ثمّ سار جيش رجار مع ابن الثمنة في السنة أربع وأربعين وأربعمائة للهجرة لاحتلال الجزيرة، فلم يكن فيها من يدافع عنها، فاستولوا على ما مرّوا به في طريقهم.[2]

ثمّ سار الحليفان بجيشهما إلى قصريانة فحاصراها، فخرج إليهما ابن الحواس وقاتلهما قتالاً شديداً فهزمه الفرنج، فعاد إلى حصنه. رحل الفرنج عن قصريانة وساروا في الجزيرة حيث استولوا على مواقع عديدة فارقها كثير من أهلها العلماء والصالحين.[3]

وسارت جماعة من سكان صقلية إلى المعز بن باديس صاحب افريقيا وذكروا له

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٧٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٣.

ما حلّ بالجزيرة وطلبوا مساعدته، فعمّر اسطولاً كبيراً وشحنه بالمقاتلة والعدّة وسيّره في الشتاء إلى قوصرة. هاج البحر على الأسطول فغرق أكثر جنده وحُطّمت سفنه ولم ينجُ إلا القليل، فاضعف ذهاب هذا الأسطول وغرقه المعزّ بن باديس، فملك الفرنج أكثر مناطق جزيرة صقلية.(١)

بعد المعز ولّي ابنه تميم، الذي أرسل إلى جزيرة صقلية أسطولاً كبيراً بقيادة ولديه أيوب وعلي وصل الجزيرة فنزل في جرجنت. ثمّ أن أهل جرجنت أحبّوا أيوباً فحسده ابن الحواس وسار إليه في جيشه فقاتله. وساعد أهل جرجنت أيوباً وقاتلوا معه. وبينما كان ابن الحواس يقاتل أصابه سهم فقتل، فملك أيوب المدينة.

ثمّ وقع خلاف بين أهل المدينة وبين عبيد الجيش الافريقي، فحصلت فتنة أدت إلى القتال، فقرر أيوب وشقيقه علي الانسحاب من صقلية، فعادا إلى افريقيا السنة إحدى وستين وأربعمائة مع جماعة من أعيان صقلية.(٢)

وهكذا، لم تبقَ أمام الفرنج صعوبات في احتلال الجزيرة، فحاصروا قصريانة وجرجنت وضيّقوا على المسلمين فضاق الأمر على أهلهما الذين لم يبقَ لديهم طعام أو شراب، فسقطت جرجنت في يد الفرنج، فيما صمدت قصريانة مدّة ثلاث سنين. أخيراً شدّد الفرنج الحصار عليها فأذعن سكانها، فتسلّمها الفرنج السنة أربع وثمانين وأربعمائة للهجرة.(٣)

وملك رجار كامل جزيرة صقلية وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين. وبعد وفاته ملك ابنه، ويدعى رجّار أيضاً، فاكرم المسلمين وقرّبهم فأحبوه. وعمّر أسطولاً كبيراً وغزا الجزر بين صقلية وافريقيا كمالطة وقوصرة وجرية وقرقنة، ووصلت غزواته إلى سواحل افريقيا الشمالية.

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥١.

التقييم:

أ - بدأت أولى مشكلات المسلمين في جزيرة صقلية عندما تقاتل الإخوان جعفر وعلي ابنا يوسف. وفي نهاية هذا القتال قُتل عدد كبير من عبيد المسلمين ومن البربر، كما طرد جعفر كلّ البربر المسلمين من الجزيرة فأصبح جيشه من أهل صقلية. وهذا ما أضعف المسلمين في الجزيرة من جهة، وأضعف صاحبها جعفر الذي طمع به أمراء الجزيرة فثاروا عليه وخلعوه. ثمّ فرض أهل الجزيرة تعيين أحمد الأكحل والياً عليهم، فكان ذلك أول الوهن.

ب - المشكلة الثانية للمسلمين كانت عندما جرى قتال بين قائدين من قوادهم، أحدهما صاحب صقلية والثاني عبدالله بن باديس الذي أرسله والده المعز، بناء لطلب أهل الجزيرة، لتسلم ولايتها. وبالفعل اقتتل المسلمون بعضهم مع البعض مما أضعفهم. ثمّ قاتل أهل الجزيرة عبدالله وهزموا جيش المعز الذي انسحب منها.

ج - المشكلة الثالثة كانت عندما ولّى أهل صقلية من يريدون عليها، فانفصلت المناطق وثارت على الوالي واستقلّت. ثمّ جرى قتال بين القادة المسلمين الذين استقلّ كلّ منهم بإحدى مناطق الجزيرة.

د - لكن الخطر الأكبر على المسلمين في صقلية حصل عندما قرّر أحد هؤلاء القادة الاستعانة بالفرنج في صراعه من أجل السيطرة على الجزيرة، ووعد قائدهم «رجار» بتسليمه كامل الجزيرة.

لقد سبق لقادة مسلمين أن استعانوا بالروم لمحاربة قادة مسلمين آخرين. كما أن هذا الأمر تكرّر مراراً في مناطق عدّة من العالم الاسلامي. تكرّر في الاندلس وفي الشرق، خاصة خلال الحروب الصليبية إذ كانت تجري تحالفات بين والٍ مسلم وقائد فرنجي، ضد والٍ مسلم وقائد فرنجي آخرَين. فالمصالح الفردية في هذه الحالات كانت تتفوّق على المصلحة العامة ومصلحة الجماعة. لكن النتيجة كانت دائماً معاكسة لمصالح المسلمين. ففي الاتحاد قوّة وفي التفرّق ضعف.

إن الاستعانة بالفرنج في القتال الداخلي أدّت إلى احتلال هؤلاء كلّ أجزاء جزيرة صقلية، التي خرجت عن سيطرة المسلمين ودخلت في سيطرة الفرنج، وباءت محاولات

ابن باديس المتكرّرة لإعادة السيطرة عليها بالفشل.

أما الأسطول الذي أرسله ابن باديس لاستعادة صقلية، فقد سيّره في فصل الشتاء من دون أن يكون مؤهّلاً لمواجهة العواصف البحرية، فغرق أكثر جنده، وفشلت آخر محاولة لاستعادة جزيرة صقلية من قبل المسلمين.

حتى أمام خطر الافرنج الداهم، جرى قتال بين ابن الحوّاس وأيوب بسبب الحسد والغيرة من دون أخذ مصالح المسلمين في الاعتبار. وهذا القتال ساهم أيضاً في سيطرة الفرنج على الجزيرة.

إن تشتّت المسلمين في جزيرة صقلية وحروبهم الداخلية ضد بعضهم البعض، واستقدامهم الفرنج لمؤازرتهم ضد مسلمين آخرين، كلها عوامل ساهدت في إضعاف المسلمين في الجزيرة وخروجهم منها.

١٠ - استيلاء تتش بن ألب ارسلان على حمص وغيرها من سواحل الشام

في السنة خمس وثمانين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق مدينة حلب وقلعتي عرقة وأفامية.[١]

وتفاصيل ذلك أن السلطان ملكشاه كلّف أخاه تتش بأن يسير إلى ساحل بلاد الشام ويستولي على ما للخليفة الفاطمي المستنصر من البلاد، ثمّ يسير إلى مصر ليملكها. وعزّزه السلطان بجيش قسيم الدولة أقسنفر صاحب حلب، وجيش بوزان صاحب الرها.[٢]

سارت الجيوش الثلاثة إلى حمص التي كان يدافع عنها ابن ملاعب، وكان الضرر منه ومن أولاده على المسلمين عظيماً. حاصر تتش حمص حصاراً شديداً وضيّقه على من بها، فتمكّن من فتحها عنوة وألقى القبض على ابن ملاعب وولديه. ثمّ سار إلى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٤٧٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢.

قلعة عرقة فملكها عنوة بعد أن حاصرها وضيّق الحصار عليها. ثمّ ملك قلعة أفامية بعد أن استأمن صاحبها فأمّنه.[١]

وقصد تتش مدينة طرابلس التي كان صاحبها جلال الملك بن عمار قد حصّنها جيّداً، فحاصرها بقصد فتحها. لكنها نجت من السقوط بفضل حيلة جاء بها صاحبها ابن عمار، وكتب عنها ابن الأثير ما يأتي:[٢]

«ثمّ سار إلى طرابلس فنازلها فرأى صاحبها جلال الملك بن عمار جيشاً لا يُدفع إلاّ بحيلة، فأرسل إلى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله فلم ير فيهم مطمعاً. وكان من قسيم الدولة آقسنقر وزير له اسمه زرين كمر، فراسله ابن عمار فرأى عنده ليناً فأتحفه وأعطاه، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في إصلاح حاله ليدفع عنه. وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفاً بمثلها وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدّم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته والشد معه والتحذير من محاربته. فقال آقسنقر لتاج الدولة تتش: لا أقاتل من هذه المناشير بيده. فأغلظ له تاج الدولة وقال: هل أنت إلاّ تابع لي؟ فقال آقسنقر: أنا أتابعك إلاّ في معصية السلطان. ورحل من الغد عن موضعه، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل، فرحل غضبان وعاد بوازن أيضاً إلى بلاده فانتفض هذا الأمر».

التقييم:

- استعمل ابن عمار صاحب طرابلس طريقة «فرّق تسد»، ففرّق ما بين تتش القائد العام للجيش الذي كان يحاصر مدينته وأحد أبرز قادته أقسنقر صاحب حلب بعد أن استمال هذا الأخير مستعملاً سلاح المال.

- من جهة أخرى كان ابن عمار محتاطاً للحالات المماثلة للحال التي وقع فيها من محاصرة بلده، إذ إنه كان قد استصدر من السلطان مناشير بمنع محاربته من قبل الجيوش التابعة لهذا الأخير. وهكذا أصبح تتش معتدياً بدلاً من أن يكون فاتحاً.

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

فالقائد المتبصّر يكون دائماً مستعداً لمختلف الاحتمالات التي قد تطرأ.

١١ – ملك السلطان الحجاز واليمن

وفي السنة نفسها حضر أمام السلطان من بغداد جبق أمير التركمان صاحب قرمسين وغيرها، فأمره ملكشاه بأن يسير هو وجماعة من أمراء السلطان إلى الحجاز واليمن ليفتحوا البلاد هناك.(١)

عيّن السلطان قائداً للحملة سعد الدولة كوهرائين الذي كلّف القائد تُرشُك بقيادة الحملة التي سارت إلى أن بلغت الحجاز فاستولت عليه.(٢)

وأساء جند السلطان السيرة في الحجاز حتى جاء أميرها محمد بن هاشم إلى السلطان مستغيثاً منهم.

ثمّ سارت الحملة إلى اليمن فاستولت عليه وملكت عدن، لكنها عاثت فيه وأساءت السيرة وارتكب أفرادها السيّئات.(٣)

التقييم:

أ – من أبرز مهام القائد العسكري أثناء الحملات واحتلال المناطق والمدن مهمّة ضبط جنده ومنعهم عن ارتكاب المخالفات بحق السكان الآمنين. هذه القاعدة لم تكن دائماً محترمة خلال معارك الجيوش الاسلامية ضد القلاع والحصون والمدن، إذ إن التاريخ سجّل ارتكاب هذه الجيوش تجاوزات وإساءات بحق السكان.

ب – ولم تكن الجيوش الإسلامية الوحيدة التي خالفت القواعد الانسانية في التعامل مع المدنيين، إذ سجّل التاريخ مجازر ارتكبها جند الحملة الصليبية الأولى عند احتلال مدينة القدس المقدّسة. كما حفلت كتب التاريخ العسكري باخبار المجازر التي ارتكبتها الجيوش الغازية لدى الدخول إلى المدن المكتظّة بالسكان. فعند دخول المدن المفتتحة من قبل جيش غاز تحصل فوضى يصعب خلالها على القادة العسكريين التحكّم بتصرّفات جنودهم، مما يؤدي أحياناً

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٨.

إلى ارتكاب مخالفات لا يقرّها الشرف العسكري ولا تسمح بها قوانين الجيوش وأنظمتها وتقاليدها.

١٢ – مقتل الوزير نظام الملك

في سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة خرج السلطان، ومعه الوزير نظام الملك، من أصبهان عائداً إلى بغداد. فلمّا كان بالقرب من نهاوند، وبعد أن فرغ نظام الملك من افطاره، خرج في محفته إلى خيمة زوجته، فأتاه صبي ديلمي، قيل إنه من الباطنية، في صورة مستغيث، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه.[١]

ثمّ هرب الصبي لكنّه تعثّر بطنب خيمة فأدركه جند الوزير وقتلوه. وركب السلطان إلى معسكر نظام الملك، فسكّن عسكره وأصحابه.[٢] وهكذا توفي الوزير نظام الملك بعد أن بقي وزيراً طيلة ثلاثين سنة. وكان قد بدأ بوزارة ألب ارسلان أيام إمارته في خراسان.[٣]

التقييم:

أ – لم يكن معسكر نظام الملك محروساً جيداً. لذلك تمكّن الفتى الديلمي من الوصول إلى أمام خيمة الوزير من دون أن يعترضه أحد، رغم وجود أعدادٍ كبيرة من الجند التابعين للوزير في المعسكر. فنظام خدمة الحرس المنظم والذي يراقب كلّ مداخل المخيم، لم يكن معمولاً به ومطبقاً في هذا المعسكر. وهذا أمر مستغرب بالنسبة إلى وزير كبير كنظام الملك له من الأعداء كثيرون.

ب – من جهة أخرى أقدم أصحاب نظام الملك على قتل المعتدي بدلاً من أسره واستجوابه لمعرفة سبب طعنه الوزير والجهة التي ارسلته للقيام بذلك. وهذا أمر مستغرب أيضاً، لاسيما أن العرب كانوا قد

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٨.

تعرّضوا سابقاً لتجارب مماثلة وأسروا المعتدي وحققوا في شأنه. فالإمام علي بن أبي طالب، عندما طعنه ابن ملجم، منع مرافقيه عن قتله، وذلك للتحقيق معه ومعرفة سبب إقدامه على عمله.

ج - إن المراقب المعاصر يتساءل عن أسباب سهولة وصول المعتدين إلى كبار رجال المسلمين في ذلك الزمان والاعتداء عليهم. وقد سبق وأوردنا حالات عدّة من ذلك في هذه الموسوعة.

١٣ - وفاة السلطان ملكشاه

بعد مقتل الوزير نظام الملك سار السلطان ملكشاه إلى بغداد ودخلها، فلقيه وزير الخليفة عميد الدولة بن جهير. وعزم السلطان على تولية وزارته لتاج الملك، وكانت قد ظهرت كفايته. إلاّ أنه، وقبل توليته، خرج السلطان إلى الصيد وعاد منه مريضاً بسبب أكله لحم طريدة فأصابته حمى شديدة، فافتصد فتوفي بعد عشرة أيام، وذلك ليلة الجمعة في منتصف شوال السنة خمس وثمانين واربعمائة للهجرة.[١]

نقل ابن كثير رواية عن خلاف بين السلطان والخليفة قبل وفاة الأول، وأن هذا الخلاف كاد يخرج الخليفة من بغداد. كتب ابن كثير عن هذا الموضوع:[٢]

«- لمّا استقرّ رِكاب السلطان في بغداد، وجاء الناس للسلام عليه والتهنئة بقدومه، وأرسل إليه الخليفة يهنّئه، فأرسل إلى الخليفة يقول له: لا بد أن تترك لي عن بغداد، وتتحوّل إلى أي البلاد شئت. فارسل إليه الخليفة يستنظره شهراً، فردّ عليه: ولا ساعة واحدة. فأرسل إليه يتوسّل في إنظاره عشرة أيام، فأجاب إلى ذلك بعد تمنّع شديد. فما استتم الأجل حتى خرج السلطان يوم عيد الفطر إلى الصيد فأصابته حمى شديدة...».

التقييم:

أ - من النص المذكور يمكننا تكوين فكرة واضحة عن مدى سيطرة السلطنة السلجوقية على الخلافة، ومدى استهانة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٢ - ١٥٣.

السلطان بالخليفة الذي كان سيطرده من بغداد لو بقي السلطان على قيد الحياة.

ب - وكان السلاجقة قد علموا أن العرب والفرس لا يمكن أن يخلصوا في خدمتهم، لذلك ظهرت الحاجة إلى الاعتماد على المماليك الترك الذين كانوا يخضعون لنظام قاس في تنشئتهم ولرقباء من الخصيان ونقباء أتراكٍ فور قدومهم من بلاد القشاق.(١)

ج - أما أسباب الخلاف بين ملكشاه ووزيره نظام الملك فتعوّد إلى أن هذا الأخير أحاط نفسه بجيش كبير من هؤلاء المماليك الذين عرفوا بـ«المماليك النظامية» فقوي بهم مما جعل السلطان يشعر بازدياد نفوذه فكتب إليه كتاباً جاء فيه:(٢)

«انك استوليت على ملكي وقسّمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك، كأنك شريك في الملك. إن كنت شريكي في الملك ويدك في يدي في السلطنة، فلذلك حكم. وإن كنت نائبي وبحكمي، فيجب ان تلزم التبعية والنيابة».

فأجابه نظام الملك:

«إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك، فاعلم، فانك ما نلت هذا الأمر إلاّ بتدبيري ورأي... واعلم أن دواتي مقرونة بتاجك، متى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب».

د - ثمّ تزايد نفوذ المماليك وتحكّموا بأمور الدولة إلى درجة تولية بركيارق بدلاً من محمود.

هـ - ومن التنظيمات العسكرية التي استنّها نظام الملك، أن عطاء الجندي أيام السامانيين كان يدفع نقداً، فجعله نظام الملك إقطاعاً، مما جعل الجندي يتعلّق بالأرض. وهكذا أُلزم على البقاء في خدمة السلطان كي تبقى الأرض بحوزته.

كما منحت المدن والقلاع والولايات اقطاعاً للقادة من المماليك الذي لقبوا بـ«الاتابكة». وهكذا أمست أراضي فارس والجزيرة الفراتية والشام مقسّمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلطان

---

(١) بلاد القشاق: إقليم بحوض نهر الفولغا في جنوب شرق روسيا.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

الذين اتخذوا، لأنفسهم في ما بعد، جيوشاً من المماليك.

أما طريقة جمع الفرق العسكرية المملوكية، فقد اعتُمد إطلاق الأسهم من معسكر إلى آخر أو من قلعة إلى قلعة. وكان هؤلاء يعودون إلى إقطاعاتهم فور انتهاء الحملة.

- في ما بعد ازداد نفوذ الأتابكة في إقطاعاتهم، فيما بدأ الانحلال يطرق أبواب السلطنة السلجوقية. ثمّ بدأوا بالاستقلال بولاياتهم، فتفكّكت الدولة السلجوقية وتوزّعت بين الأتابكة.

وهذا ما سنعالجة في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

ملحق رقم ٤

سيرة الوزير نظام الملك

- كتب ابن الأثير:[١]

كان من أبناء الدهاقين بطوس، فزال ما كان لأبيه من مال وملك وتوفيت أمه وهو رضيع فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حتى شبّ وتعلّم العربية. وسر الله فيه يدعوه إلى علو الهمة والاشتغال بالعلم فتفقّه وصار فاضلاً وسمع الحديث الكثير. ثمّ اشتغل بالأعمال السلطانية ولم يزل الدهر يعلو به ويخفض حضراً وسفراً. وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة في صحبة بعض المتصرّفين. ثمّ لزم أبا علي بن شاذان متولي الأمور ببلخ لداود والد السلطان ألب أرسلان فحسنت حاله معه وظهرت كفايته وأمانته وصار معروفاً عندهم بذلك. فلما حضرت أبا على بن شاذان الوفاة، أوصى الملك ألب أرسلان به وعرّفه حاله فولاّه شغله، ثمّ صار وزيراً له إلى أن ولي السلطنة بعد عمّه طغرلبك. واستمرّ على الوزارة لأنه ظهرت منه كفاية عظيمة وآراء سديدة فانتقلت السلطنة إلى ألب أرسلان. فلما توفي ألب أرسلان قام بأمر ابنه ملكشاه.

وقيل إن ابتداء أمره أنه كان يكتب الأمير تاجر صاحب بلخ وكان الأمير يصادر في رأس كلّ سنة ويأخذ ما معه ويقول له: قد سمنت يا حسن، ويدفع إليه فرساً ومقرعة ويقول: هذا يكفيك. فلما طال ذلك عليه أخفى أولاده فخر الملك ومؤيد الملك وهرب إلى جفري بك داود والد ألب أرسلان، فوقف

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٠ - ٤٨١.

فرسه في الطريق فقال: «اللهم إني أسألك فرساً تخلصني عليه». فسار غير بعيد فلقيه تركماني وتحته فرس جواد فقال لنظام الملك: «انزل عن فرسك». فنزل عنه فأخذه التركماني وأعطاه فرسه فركبه، وقال له: «لا تنسني يا حسن». قال نظام الملك: «فقويت نفسي بذلك وعلمت أنه ابتداء سعادة». فسار نظام الملك إلى مرو ودخل على داود، فلما رآه أخذ بيده وسلّمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: «هذا حسن الطوسي، فتسلّمه واتخذه والداً لا تخالفه». وكان الأمير تاجر لمّا سمع بهرب نظام الملك سار في أثره إلى مرو فقال لداود: «هذا كاتبي ونائبي قد أخذ أموالي». فقال له داود حديثك مع محمد يعني ألب أرسلان وكان اسمه محمداً فلم يتجاسر تاجر على خطابه فتركه وعاد.

وأما أخباره فإنه كان عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت، وكان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمّة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرها. وكان يقول: «إني لست من أهل هذا الشأن لما تولاه، ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقله حديث رسول الله ﷺ». وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالأذان. وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات ولزوم الصلوات. وأسقط المكوس والضرائب وأزال لعن الأشعرية من المنابر.

وكان الوزير عميد الملك الكندري قد حسّن للسلطان طغرلبك التقدّم بلعن الرافضة، فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع. فلهذا فارق كثيرٌ من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري وغيرهما. فلما ولي ألب أرسلان السلطنة، أسقط نظام الملك ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو. وإذا دخل أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه. فقيل له في ذلك فقال: «إن هذين وأمثالهما، إذا دخلوا

عليّ يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون عليّ بما ليس فيّ فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً. وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه». وقال نظام الملك: «كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة ومسجد أتفرّد فيه لعبادة ربي ثمّ بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة أرض أتقوّت بريعها ومسجد أعبد الله فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لي رغيف كلّ يوم ومسجد أعبد الله فيه».

وقيل: كان ليلة يأكل الطعام وبجانبه أخوه أبو القاسم وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير مقطوع اليد. فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنّب الأكل مع المقطوع فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه، وكانت عادته أن يحضر الفقراء ويقربهم إليه ويدنيهم، وأخباره مشهورة كثيرة قد جمعت لها الجاميع السائرة في البلاد».

ملحق رقم ٥

سيرة السلطان ملكشاه

كتب ابن كثير:[١]

«جلال الدين والدولة، أبو الفتح ملكشاه، ابن أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركي، ملك بعد أبيه وامتدّت مملكته من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن، وراسله الملوك من سائر الأقاليم، حتى ملك الروم والخزر واللان. وكانت دولته صارمة، والطرقات في أيامه آمنة، وكان مع عظمته يقف للمسكين والضعيف، والمرأة، فيقضي حوائجهم. وقد عمر العمارات الهائلة، وبنى القناطر، وأسقط المكوس والضرائب، وحفر الأنهار الكبار، وبنى مدرسة أبي حنيفة والسوق، وبنى الجامع الذي يقال له جامع السلطان ببغداد، وبنى منارة القرون من صيوده بالكوفة، ومثلها فيما وراء النهر.

وضبط ما صاده بنفسه في صيوده فكان ذلك نحواً من عشرة آلاف صيد، فتصدّق بعشرة آلاف درهم، وقال: «إني خائف من الله تعالى أن أكون أزهقت نفس حيوان لغير مأكلة». وقد كانت له أفعال حسنة، وسيرة صالحة، من ذلك أن فلاحاً أنهى إليه أن غلماناً له أخذوا له حمل بطيخ هو رأس ماله. فقال: اليوم أرد عليك حملك. ثمّ قال لقيّمه: «أريد أن تأتوا اليوم ببطيخ». ففتشوا فإذا في خيمة الحاجب بطيخ فحملوه إليه. ثمّ استدعى الحاجب فقال: «من أين لك هذا البطيخ؟» قال: «جاء به الغلمان»، فقال: «أحضرهم»، فذهب

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٥ - ١٥٧.

وأمرهم بالهرب. فأحضره وسلّمه للفلاح، وقال: «خذ بيده فإنه مملوكي ومملوك أبي، وإياك أن تفارقه، ثمّ ردّ على الفلاح الحمل البطيخ». فخرج الفلاح يحمله وبيده الحاجب، فاستنقذ الحاجب نفسه من الفلاح بثلاثمائة دينار.

ولما توجّه لقتال أخيه تتش اجتاز بطوس فدخلها لزيارة قبر علي بن موسى الرضا، ومعه نظام الملك، فلما خرجا قال لنظام: «بم دعوت الله؟» قال: «دعوت الله أن يظفرك على أخيك». فقال: «لكني قلت اللهم إن كان أخي أصلح للمسلمين فظفّره بي، وإن كنت أنا أصلح لهم فظفّرني به». وقد سار بعسكره من أصبهان إلى أنطاكية فما عرف أن أحداً من جيشه ظلم أحداً من الرعية، وكانوا مئين ألوف. واستعدى إليه مرة تركماني أن رجلاً افتض بكارة ابنته وهو يريد أن يمكّنه من قتله، فقال له: «يا هذا إن ابنتك لو شاءت ما مكّنته من نفسها، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فاقتلها معه». فسكت الرجل، فقال له الملك: «أو تفعل خيراً من ذلك؟» قال: «وما هو؟» قال: «فإن بكارتها قد ذهبت، فزوّجها من ذلك الرجل وأنا أمهرها من بيت المال كفايتهما»، ففعل.

وحكى له بعض الوعّاظ أن كسرى اجتاز يوماً في بعض أسفاره بقرية وكان منفرداً من جيشه، فوقف على باب دار فاستسقى فأخرجت إليه جارية إناء فيه ماء قصب السكر بالثلج، فشرب منه فأعجبه. فقال: «كيف تصنعون هذا؟»، فقالت: «إنه سهل علينا اعتصاره على أيدينا». فطلب منها شربة أخرى فذهبت لتأتيه بها فوقع في نفسه أن يأخذ هذا المكان منهم ويعوّضهم عنه غيره. فأبطأت عليه، ثمّ خرجت وليس معها شيء، فقال: «ما لك؟» فقالت: «كأن نية سلطاننا تغيّرت عليها فتعسر عليّ اعتصاره».

وهي لا تعرف أنه السلطان. فقال: «اذهبي فإنك الآن تقدرين عليه»، وغيّر نيته إلى غيرها. فذهبت وجاءته بشربة أخرى سريعاً فشربها وانصرف. فقال له السلطان: «هذه تصلح لي ولكن قص على الرعية أيضاً حكاية كسرى الأخرى حين اجتاز ببستان وقد أصابته صفراء في رأسه وعطش، فطلب من ناطوره عنقوداً من حصرم، فقال له الناطور: إن السلطان لم يأخذ حق منه! فلا

أقدر أن أعطيك منه شيئاً. قال: فعجب الناس من ذكاء الملك وحسن استحضاره هذه في مقابلة تلك.

واستعداه رجلان من الفلاحين على الأمير خمارتكين أنه أخذ منهما مالاً جزيلاً وكسر ثنيتهما،[1] وقالا: «سمعنا بعدلك في العالم، فإن اقدتنا[2] منه كما أمرك الله وإلا استعدينا عليك الله يوم القيامة،» وأخذا بركابه. فنزل عن فرسه وقال لهما: «خذا بكمي واسحباني إلى دار نظام الملك». فهابا ذلك. فعزم عليهما أن يفعلا، ففعلا ما أمرهما به. فلما بلغ النظام مجيء السلطان إليه خرج مسرعاً فقال له الملك: «إني إنما قلدتك الأمر لتنصف المظلم ممن ظلمه». فكتب من فوره فعزل خمارتكين وحلّ أقطاعه، وأن يرد إليهما أموالهما، وأن يقلعا ثنيتيه إن قامت عليه البينة. وأمر لهما الملك من عنده بمائة دينار.

وأسقط مرّة بعض المكوس، فقال له رجل من المستوفين: «يا سلطان العالم، إن هذا الذي أسقطته يعدل ستمائة ألف دينار وأكثر». فقال: «ويحك إن المال مال الله، والعباد عباد الله، والبلاد بلاده، وإنما أردت أن يبقى هذا لي عند الله، ومن نازعني في هذا ضربت عنقه». وغنّته امرأة حسناء فطرب وتاقت نفسه إليها، فهمّ بها فقالت: «أيها الملك إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار، وبين الحلال والحرام كلمة واحدة». فاستدعى القاضي فزوّجه بها.

وقد ذكر ابن الجوزي عن ابن عقيل أن السلطان ملك شاه كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته لبعض الباطنية ثمّ تنصّل من ذلك وراجع الحق. وذكر أن ابن عقيل كتب له شيئاً في الدليل على إثبات الصانع. وقد ذكرنا أنه لما رجع آخر مرّة إلى بغداد فعزم على الخليفة أن يخرج منها، فاستنظره عشرة أيام فمرض السلطان ومات قبل انقضاء العشرة أيام. وكانت وفاته في ليلة الجمعة النصف من شوال عن سبع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وكانت مدّة ملكه من ذلك تسع عشرة سنة وأشهراً، ودفن بالشونيزي، ولم يصلِّ عليه أحد لكتمان الأمر. وكان مرضه بالحمى، وقيل إنّه سُمّ، والله أعلم».

---

(١) الثنية: السن الأمامية.

(٢) اقدتنا: أنصفتنا.

الفصل السادس
العمليات العسكرية في عهد السلطان بركيارق

لمّا مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون[1] موته عن الجيش، وأعادت جعفراً بن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه المقتدي بأمر الله. وسارت من بغداد والسلطان محمولٌ معها، وبذلت الأموال للأمراء سراً وضبطت الأوضاع، واستحلفت القادة لابنها محمود. وكان تاج الملك يتولى ذلك لها. وأرسلت قوام الدولة كربوقا، الذي أصبح صاحب الموصل، إلى اصبهان بخاتم السلطان، فملك القلعة باسم السلطان.[2]

وأرسلت تركان خاتون إلى الخليفة تسأله أن يكون ولدها محمود ملكاً بعد أبيه، وكان عمره يومذاك خمس سنين. كما طلبت أن يخطب له على المنابر، فأجابها الخليفة إلى ذلك وأرسل إليه بالخلع، وبعث يعزّيها ويهنئها مع وزيره عميد الدولة بن جهير.[3]

ثمّ اصطحبت تركان إبنها في الجيوش إلى أصبهان ليتوطّد له الملك، فدخلوها وتمّ لهم ذلك، وخطب لمحمود في البلدان، وصولاً إلى الحرمين الشريفين. واستوزر له تاج الملك أبا الغنائم المرزبان بن خسرو.[4]

---

(١) في ابن خلدون: تركمان خاتون – في ابن كثير: زبيدة خاتون – في ابن الأثير: تركان خاتون.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٣.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦ – ٢٧، وجزء ٦، ص ٩٩١ – ٩٩٢.

وأرسلت أم السلطان الجديد إلى الخليفة تسأله أن تكون ولايات العمّال إليه، فامتنع الخليفة ووافقه السفير أبو حامد الغزالي الذي قال لتركان خاتون:[١]

«إن ولدك صغير، لا يجيز الشرع ولايته».

فأذعنت له فخطب لولدها ولقب ناصر الدنيا والدين.

ولما سارت تركان إلى اصبهان طالب العسكر الوزير تاج الملك بالأموال، فوعدهم بها. فلما وصلوا إلى قلعة برجين صعد إليها لينزل بالأموال منها. فلما استقرّ فيها عصى على خاتون ولم ينزل خوفاً من العسكر الذين ساروا عنه لنهب خزائنه فلم يجدوا فيها شيئاً، كونه كان قد أخفى ما فيها في مكان آخر. فلما بلغت خاتون أصبهان لحقها الوزير تاج الملك واعتذر بأن مستحفظ القلعة حبسه، وأنه هرب منه إليها، فقبلت عذره.[٢]

١ – منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملكشاه، وأمه زبيدة بنت ياقوتي داود عم ملكشاه. فلما مات السلطان أرسلت تركان خاتون الأوامر إلى اصبهان للقبض على بركيارق، كونها خافت أن ينازع ابنها في السلطنة، فقبض عليه وحبس.[٣]

فلما حبس بركيارق خافت عليه أمه زبيدة فاتفقت مع مماليك نظام الملك النظامية على الوقوف إلى جانب ابنها. فوثب هؤلاء على سلاح كان للوزير نظام الملك في اصبهان فأخذوه وثاروا في المدينة وأخرجوا بركيارق من السجن وخطبوا له باصبهان وملكوه. وهكذا انفردت الخاتون وولدها محمود، ومعهما شرذمة قليلة من جيش السلطان والخاصكية الذين انفقت

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٨٥.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٢.

فيهم مليون دينار لقتال بركيارق بن ملكشاه.[1]

أما بركيارق فانه، لما قاربت خاتون وابنها محمود اصبهان، خرج منها ومن معه من المماليك النظامية إلى الري حيث لقيهم القائد أرغش النظامي في عساكره ومعه جماعة من الأمراء فأصبحوا يداً واحدة. أما سبب ميل المماليك النظامية إلى بركيارق، فكان كرههم لتاج الملك وزير السلطان محمود لأنه كان عدو نظام الملك والمتهم بقتله.[2]

سار السلطان بركيارق بمن معه إلى قلعة طبرك[3] فحاصرها حصاراً شديداً فسقطت في يده وملكها.

عند هذا الحدّ سيّرت خاتون جيشها إلى قتال بركيارق، فالتقى الجيشان بالقرب من بروجرد. وقبل بدء القتال انحازت جماعة من الأمراء من جيش خاتون إلى بركيارق، ومنهم يلبرد وكمشتكين الجاندار فقوي بهم. ثمّ جرى قتال عنيف بين الجيشين أسفر عن هزيمة جند خاتون الذين عادوا إلى اصبهان، وسار بركيارق في اثرهم.

التقييم وسلطنة بركيارق:

أ - كان بركيارق الابن الأكبر للسلطان ملكشاه. لذلك فهو يملك الأفضلية في التملّك. لكن مؤامرات خاتون وضغطها على السلطان عملت على إيصال ابنها إلى السلطنة، وكان في عمر خمس سنين.

ب - علاوة على ذلك تبيّن أنّ الجند، وخاصة المماليك النظامية، كانوا يقدّرون بركيارق. لذلك انحازوا إليه وأخرجوه من السجن الذي وضعته فيه الخاتون التي كانت ترغب في أن تكون هي السلطان خلف صورة ابنها الطفل. إلاّ أن وضع السلطنة السلجوقية لم يكن جاهزاً لتقبّل قيادة امرأة.

ج - يضاف إلى ذلك ان خاتون اختارت وزيراً لابنها تاج الملك الذي كان جند الوزير نظام الملك يكرهونه ويتهمونه باغتياله.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٣.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٥.
(٣) في ابن خلدون: قلعة طفرل.

لذلك انحاز المماليك النظامية إلى بركيارق فأمّنوا له الانتصار في حربه.

وبالفعل كان تاج الملك في جند خاتون وشهد الوقعة بينها وبين بركيارق وهرب إلى نواحي بروجرد، فأُخذ منها وحُمل إلى عسكر بركيارق، فيما كان يحاصر أصبهان. أراد بركيارق توزير تاج الملك الذي شرع في إصلاح كبار النظامية، وفرّق فيهم مائتي ألف دينار، فزال ما في قلوبهم منه.(١)

فلما بلغ عثمان نائب نظام الملك الخبر ساءه، فحرّض أصاغر الغلمان على أن لا يقنعوا إلاّ بقتل قاتل قائدهم. وهكذا فشل تدبير تاج الملك الذي هاجمه النظامية فقتلوه.(٢)

ثمّ قتل السلطان محمود، وهو محاصر في اصبهان، بعد سنة من ولايته فاستقلّ بركيارق بالملك، فحضر إليه عزّ الملك بن نظام الملك، وكان على خوارزم، فاستوزره وفوّض إليه أمر دولته.(٣)

وفي السنة ست وثمانين وأربعمائة للهجرة قدم بركيارق إلى بغداد وطلب من الخليفة المقتدي الخطبة، فخطب له على منابرها ولقّب ركن الدولة وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير الخلع.

٢ - مهاجمة بني خفاجة للحجاج

في السنة خمس وثمانين وأربعمائة للهجرة سار الحجاج من بغداد إلى الكوفة، ثمّ رحلوا عنها، فخرجت عليهم قبيلة خفاجة بعد أن طمع مقاتلوها اثر مقتل السلطان محمود، فأوقعوا بهم وقتلوا أكثر الجند الذين كانوا يواكبون قافلتهم، وانهزم الباقون. ونهب عرب خفاجة الحجاج، ثمّ قصدوا الكوفة فدخلوها واغاروا على أحيائها وقتلوا كثيرين من أهلها. رماهم أهل الكوفة بالسهام فخرجوا منها بعد أن نهبوا وأخذوا ثياب من وجدوه من الرجال والنساء.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٥.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٣.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٣.

بلغ الخبر إلى بغداد، فأُرسل جيش منها لمقاتلة بني خفاجة الذين انهزموا وفروا. لاحقهم جند بغداد وأدركوهم حيث جرى قتال عنيف بين الجهتين قتل خلاله عدد كبير من مقاتلي قبيلة خفاجة ونهبت أموالهم، فضعفت خفاجة بعد هذه الوقعة.(١)

٣ – عصيان تتش بن ألب ارسلان

كان تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام، وكان قد توجّه إلى بغداد للاجتماع بشقيقه السلطان ملكشاه. لكن خبر وفاته بلغه قبل وصوله إلى بغداد، وكان قد بلغ هيت فاستولى عليها. ثمّ عاد إلى دمشق حيث خطب لنفسه بالسلطنة وجهّز الجيوش ووزع على أفرادها الأموال للقيام بحملة على بلاد الشام.(٢)

سار تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان إلى حلب، وفيها صاحبها أقسنقر قسيم الدولة الذي رأى صغر سن أولاد ملكشاه واختلافهم في ما بينهم، وعلم أنه لا يستطيع التصدي لتتش. لذلك قرّر مصالحته وانضمّ إليه في حملته للسيطرة على بلاد الشام وإعلان نفسه سلطاناً.(٣)

ثمّ راسل أقسنفر ياغي سيان صاحب انطاكية وبوزان(٤) صاحب الرها وحران مشيراً عليهما بطاعة تتش، ففعلوا ذلك في انتظار ما سيكون من أولاد ملكشاه. وقصد الجميع الرحبة فحاصروها حصاراً شديداً، وملكوها في المحرم من السنة ست وثمانين وأربعمائة. ثمّ قصدوا نصيبين فامتنع أهلها، فحاصرها تتش ومن معه حصاراً شديداً إلى ان فتحها عنوة وقهراً، وقتل من أهلها عدداً كبيراً، ونهب جيشه الأموال والمنازل، وسلّم قيادتها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلى. ثمّ سار يريد الموصل، فأتاه الكافي

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٥ – ٤٨٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٨.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٤ – ٩٩٥.

(٤) في ابن كثير: بوران – في ابن خلدون: مران – في ابن الأثير: بوزان.

ابن فخر الدولة (ابن جهير)، وكان على جزيرة ابن عمر، فاستوزره.[(١)]

أ - وقعة المضيع وأخذ تتش الموصل من العرب:

بعد أن سيطر تتش وجيشه على نصيبين سار يريد الموصل، وكان عليها إبراهيم بن قريش بن بدران من بني عقيل.

وكان سبق لإبراهيم أن استدعاه السلطان ملكشاه السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة ليحاسبه. فلما حضر إليه اعتقله وأرسل فخر الدولة بن جهير إلى البلاد فملك الموصل وما جاورها. فلما توفي ملكشاه أطلقت تركان خاتون إبراهيم من الاعتقال، فسار إلى الموصل وتسلّمها من ابن أخيه علي بن شرف الدولة.[(٢)]

وبعدما ملك تتش نصيبين أرسل إلى إبراهيم بن قريش يأمره بان يخطب له بالسلطنة ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر إليها ويطلب الخطبة له بالسلطنة. تمنّع إبراهيم عن ذلك فحصلت وقعة المضيع التي سيطر بعدها تتش على الموصل.[(٣)]

سار تتش نحو الموصل وتقدّم إبراهيم نحوه فالتقيا في المضيع من أعمال الموصل في ربيع الأول السنة ست وثمانين وأربعمائة.

- عديد الجيشين:

- جيش تتش: عشرة آلاف.
- جيش إبراهيم: ثلاثين ألفاً.[(٤)]

- الجهازية:

نظّم تتش جيشه على الشكل الآتي:[(٥)]

- في الميمنة: أقسنقر صاحب حلب.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٨.

(٤) في ابن خلدون: ستين ألفاً - ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٥.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٨.

- في الميسـرة: بـوزان صـاحب الـرهـا وحرّان.

- قلب الجيش: بقيادة تتش.

- **سير المعركة:**[1]

- في بداية المعركة حملت ميمنة إبراهيم من العرب على ميسرة تتش بقيادة بوزان، فانهزمت هذه الميسرة وتراجعت.

- ثمّ حملت ميمنة تتش على ميسرة إبراهيم من العرب الذين انهزموا وفرّوا من المعركة.

- ثمّ قام تتش بهجوم عام بقلب جيشه على جيش إبراهيم الذي انهزم وأُخذ إبراهيم أسيراً مع جماعة من أمراء العرب فقتلوا جميعهم. ونهبت أموال العرب وما معهم من الإبل والغنم والخيل وغير ذلك. وقتلت كثيرات من نساء العرب أنفسهنّ خوفاً من السبي والفضيحة. وملك تتش الموصل وما جاورها من البلاد التي استناب بها علياً بن شرف الدولة وأمه صفية عمّة تتش.

ثمّ أرسل تتش إلى بغداد يطلب الخطبة له بالسلطنة.

ب - ملك تتش ديار بكر وفشله في أخذ اذربيجان:

لما فرغ تتش من المعركة مع العرب وملك الموصل سار إلى ديار بكر في ربيع الآخر، فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان.[2]

ثمّ سار إلى اذربيجان لأخذها كما فعل بديار بكر، لكن ابن أخيه ركن الدين بركيارق، الذي كان قد استولى على كثير من البلاد في تلك المنطقة منها الري وهمذان وما بينهما، علم بتحرّكاته فسار في جيش كبير ليمنع عمه عن السيطرة على البلاد.[3]

فلما تقارب الجيشان كان آقسنقر وبوزان ما زالا في جيش تتش، فقررا الانحياز إلى

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٨.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٥.

جانب السلطان بركيارق. نقل ابن الأثير مجرى الأحداث هذه فكتب:[1]

«فلما تقارب العسكران قال قسيم الدولة آقسنقر لبوزان: إنما اطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد صاحبنا. والآن فقد ظهر ابنه، ونريد أن نكون معه. فاتفقا على ذلك وفارقا تتش وصارا مع بركيارق. فلما رأى تاج الدولة تتش ذلك، علم انه لا قوة له بهم، فعاد إلى الشام واستقامت البلاد لبركيارق».

ج - التقييم:

- لقد ترك آقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وحرّان طاعة أولاد السلطان ملكشاه وانحازا إلى تتش بسبب ضعف أولئك وصعود قوة هذا الأخير.

- ثمّ، لمّا برز أحد أبناء ملكشاه، عادا وتركا خدمة تتش والتحقا بالسلطان بركيارق.

لذلك كان على تتش عدم الثقة بهما، لأن الذي يترك قائده وينتقل إلى جهة عدوّه بسبب تفوّق هذا العدو، يغادر هذا الأخير عند بروز قائد أقوى منه. وهذان القائدان كانا مفتقرين إلى مفهوم الولاء لقضية نبيلة أو لوطن يبذلون الغالي والرخيص في سبيله.

لهذا السبب تعمل الجيوش الحديثة على تنمية روح الولاء وحب الوطن ومفهوم الانتماء إلى المجتمع والشعب في نفوس عناصرها كي تتمكّن من غرس روح التفاني والحوافز الوطنية فيهم وقيادتهم إلى النصر. فالجندي غير المقتنع بصحة قضيته يكون خاسراً.

كما ان الجيوش الحديثة، وباستثناء حالات قليلة، كحال الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي، تجنّد حالياً عناصرها من شعبها ومجتمعها من خلال تطبيق نظام الخدمة الالزامية التي تدمج الشباب في بوتقة الوطنية وتربّيهم على حب الوطن والتضحية في سبيله.

د - ملك تتش حلب والجزيرة وديار بكر واذربيجان وهمذان:

لما عاد تتش من اذربيجان إلى دمشق راح يجمع الجند حتى كثرت جموعه وكبر جيشه وعظم حشده، فسار في جمادى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٩.

الأولى من السنة سبع وثمانين وأربعمائة من دمشق إلى حلب لتثبيت سلطته في كلّ بلاد الشام.[1]

اجتمع قسيم الدولة آقسنقر وبوزان لقتاله، وأمدّهما ركن الدولة بركيارق بالقائد كربوقا[2] على رأس جيش من قبل السلطنة. ثمّ سار هؤلاء معترضين طريق تتش إلى حلب، فالتقى الجيشان على بعد ستة فراسخ من المدينة حيث نشبت معركة عنيفة طال القتال خلالها.[3]

فلما اشتدّ القتال رأى بعض الجند الذين كانوا بقيادة آقسنقر أن لا طاقة لهم على المقاومة، فانهزموا وتبعهم الباقون.[4] وهكذا هزم الجيش الموالي للسلطان بركيارق، فيما ثبت آقسنقر فأخذ أسيراً وأحضر عند تتش الذي سأله:[5]

«لو ظفرت بي ما كنت صنعت؟»

قال:

«كنت أقتلك»

فقال له:

«أنا أحكم عليك بما تحكم عليّ»

فقتله.

بعد هذه المعركة سار تتش نحو حلب، التي كان قد دخل إليها القائد كربوقا وبوزان وأقاما الحراسة عليها وأقفلا أبوابها استعداداً لمواجهة الجيش المهاجم. فلما وصلها تتش حاصرها حصاراً شديداً، ولجّ في قتالها واستعمل المنجنيق والسلالم فملكها عنوة. ثمّ سلّم المقيم له قلعتها، فأخذ كربوقا وبوزان أسيرين.[6]

بعد أسر بوزان بعث تتش إلى حرّان والرها اللتين كانتا تشكّلان ولايته يطلب

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢.

(٢) كربوقا أصبح فيما بعد صاحب الموصل.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٨.

(٤) لقد انهزم قسم من جند آقسنقر فيما ثبت هو بقسم من الجند. وهكذا نرى أن عدم ثبوت ولاء آقسنقر انتقل إلى جنده الذين تركوه خلال المعركة وفروا.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٩٥.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٦.

منهما الاستسلام كون أميرهما أسيراً لديه، فامتنعت حاميتاهما عن التسليم، فقتل بوزان وأرسل رأسه إلى المحاصرين الذين سلّموه البلدين.(١)

أما كربوقا فقد سجنه تتش في حمص، وبقي في السجن حتى أخرجه الملك رضوان بعد مقتل أبيه تتش.

أكمل ابن خلدون رواية سيطرة تتش على ديار بكر وخلاط وارمينيا واذربيجان وهمذان والخطبة له في بغداد بأمر من الخليفة، فكتب:(٢)

«ثُمّ سار تُتش إلى الجزيرة فملكها، ثمّ ديار بكر، ثمّ خلاط وأرمينية، ثمّ أذربيجان. ثمّ سار إلى همذان فملكها، وكان بها فخر الدولة نظام الملك. وسار من حران لخدمة بركيارق فلقيه الأمير تاج من عسكر محمود بن ملكشاه بأصبهان فنهب ماله ونجا بنفسه إلى همذان، وصادف بها تتش، وشفع فيه باغِسيان وأشار بوزارته فاستوزره. وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من المستظهر، وبعث يوسف بن أبق التركماني شحنَتَه إلى بغداد في جمع من التُركمان فمنع من دخولها».

وعن الخطبة للملك تتش في بغداد كتب ابن الأثير:(٣)

«وأرسل (تتش) إلى بغداد يطلب الخطبة من الخليفة المستظهر بالله... وألحّ في طلبها، فأجيب إلى ذلك بعد أن سمعوا أن بركيارق قد انهزم من عسكر عمه تتش».

هـ - هزيمة بركيارق أمام عمه تتش:

جاءت رواية هزيمة بركيارق أمام عمّه تتش وفراره إلى أصبهان ودخولها وتعاظم شأنه مجدداً بقلم ابن الأثير الذي كتب:(٤)

«في هذه السنة (السنة ٤٨٧هـ) انهزم بركيارق من عسكر عمه تتش، وكان بركيارق بنصيبين، فلما سمع بمسير عمه إلى أذربيجان سار هو من نصيبين وعبر دجلة من بلد من فوق الموصل، وسار إلى إربل، ومنها

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٨.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٦.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٩٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

إلى بلد سرخاب بن بدر إلى أن بقي بينه وبين عمّه تسعة فراسخ ولم يكن معه غير ألف رجل، وكان عمّه في خمسين ألف رجل. فسار الأمير يعقوب بن آبق من عسكر عمه فكبسه وهزمه ونهب سواده ولم يبق معه إلا برسق وكمشتكين الجاندار واليارق، وهم من الأمراء الكبار، فسار إلى أصبهان. وكانت خاتون أم أخيه محمود قد ماتت على ما نذكره فمنعه من بها من الدخول إليها ثمّ أذنوا له خديعة منهم ليقبضوا عليه. فلما قاربها خرج أخوه الملك محمود فلقيه ودخل البلد واحتاطوا عليه. فاتفق أن أخاه محموداً حمَّ وجُدر فأراد الأمراء أن يكحلوا بركيارق فقال لهم أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب إن الملك محموداً قد جدر وما كأنه يسلم منه وأراكم تكرهون أن يليكم ويملك البلاد تاج الدولة فلا تعجلوا على بركيارق. فإن مات محمود أقيموه ملكاً، وإن سلم محمود فأنتم تقدرون على كحله، فمات محمود سلخ شوال، فكان هذا من الفرج بعد الشدة.

وجلس بركيارق للعزاء بأخيه وكان مولد محمود في صفر سنة ثمانين وأربعمائة. وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة وكان أخوه عز الملك بن نظام الملك قد مات لما كان مع بركيارق بالموصل وحمل إلى بغداد فدفن بالنظامية. وكان أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وسيرة، وكان قد أجرى الناس على ما بأيديهم من توقيعات أبيه في الإطلاقات من خاصة منها ببغداد مائتا كرّ غلة وثمانية عشر ألف دينار أميري. ثمّ إن بركيارق جدر بعد أخيه وعوفي وسلم، فلما عوفي كاتب مؤيد الملك وزيره الأمراء العراقيين والخراسانيين واستمالهم فعادوا كلّهم إلى بركيارق فعظم شأنه وكثر عسكره».[1]

و - التقييم:

- يقول المثل «مصائب قوم عند قوم فوائد».

فلما دخل بركيارق إلى أصبهان كانت المدينة في عهدة شقيقه السلطان محمود،

---

(١) نقل ابن خلدون الرواية نفسها في الجزء السادس، ص ٩٩٧.

فمنعه من بها عن الدخول إليها، ثمّ أذنوا له بهدف القبض عليه.

لكن وفاة شقيقه بمرض الجدري جعلت أمراء أصبهان وقادتها يؤيدون بركيارق، الذي عاد وكتب وزيره إلى العراقيين والخراسانيين فاستمالهم إليه فعظم شأنه وكثر عسكره.

وهكذا ثبّت بركيارق موقعه وتغلب لاحقاً على عمه تتش فأصبح السلطان السلجوقي الأوحد.

ز - القتال بين بركيارق وتتش ومقتل تتش:

بعدما انتصر تتش وهزم بركيارق سار الأول من موضع الوقعة إلى همذان، حيث خاض قتالاً ضد أحد أمرائها وانتصر فيه. ثمّ بلغه مرض بركيارق فانتقل إلى أصبهان بعد أن نهب جبرباذقان. ثمّ سار إلى الري وأرسل إلى الأمراء في أصبهان يدعوهم إلى طاعته مقابل أموال طائلة يدفعها لهم، فأجابوه بالانحياز إليه فيما هم ينتظرون نتيجة مرض بركيارق.[١]

فلما تعافى بركيارق أرسل أمراء أصبهان إلى تتش بأن ليس بينهم وبينه سوى السيف، وساروا مع السلطان من أصبهان وهم في نفر قليل. فلما بلغوا جبرباذقان أقبلت إليهم العساكر من كلّ مكان حتى بلغ عديد جيشهم ثلاثين ألفاً.[٢]

التقى جيش بركيارق وأمراء أصبهان بجيش تتش في مكان قريب من الري، حيث جرى قتال عنيف انهزم خلاله جند تتش فيما ثبت هو، مما أدى إلى مقتله في السابع عشر من صفر.[٣] وقيل إن أصحاب آقسنقر صاحب حلب هم الذين قتلوه أخذاً بثار أميرهم.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٧.
كان بركيارق قد أصابه الجدري.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٣.

كتب ابن الأثير تعليقاً على انتصار بركيارق واستقلاله بأمور السلطنة ما يأتي:[1]

«واستقام الأمر والسلطنة لبركيارق، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، بالأمس ينهزم من عمه تتش ويصل إلى أصبهان في نفر يسير فلا يتبعه أحد ولو تبعه عشرون فارساً لأخذوه لأنه بقي على باب أصبهان عدّة أيام. ثمّ لما دخلها أراد الأمراء كحله، فاتفق أن أخاه حُمّ ثاني يوم وصوله وجدر فمات فقام في الملك مقامه. ثمّ جدر هو وأصابه معه سرسام فعوفي وبقي مذ كسره عمه إلى أن عوفي. وسار عن أصبهان أربعة أشهر لم يتحرّك عمه ولا عمل شيئاً ولو قصده وهو مريض أو وقت مرض أخيه لملك البلاد:

ولله سِــرٌ في عُــلاكَ وإنَّــمــا
كلامُ العِدا ضربٌ منَ الهذَيانِ»

أما ابن كثير فقد علق بالآتي:[2]

«فاستفحل أمر بركيارق، واستقلّ بالأمور»

ح - التقييم:

- من المؤكد أن الحظّ خدم بركيارق فثبت في السلطنة. فبعد أن كان قد هُزم أمام عمه تتش، وصل إلى أصبهان في نفر قليل من أتباعه. فلو تبعه حينذاك عشرون فارساً لأخذوه لأنه بقي على باب المدينة أياماً عدّة. ثمّ لما دخلها أراد الأمراء فقء عينيه، لكن مرض أخيه محمود منعهم عن ذلك وجعلهم ينتظرون نتيجة هذا المرض.

ثم اتُفق أن توفي أخوه، فقام في الملك مقامه. ثمّ مرض هو وبقي في أصبهان أربعة أشهر كانت كافية لعمّه تتش للسير نحوه وقتله. لكن تتش لم يفعل، حتى أن أمراء أصبهان لم يؤيدوا تتشاً، بل فضّلوا انتظار نتيجة مرض بركيارق الذي شفي منه وتمكّن من عمّه فأنهى ثورته.

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٢ - ٥٠٣.

(2) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٣.

ط - وضع أبناء تتش بعد مقتل والدهم:

كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه رضوان الذي أمره بالمسير إلى العراق والإقامة بدار المملكة. سار رضوان في عدد كبير من الجند، فلما وصل إلى مدينة هيت بلغه قتل والده، فعاد إلى حلب التي كان قد سلّمها والده إلى أبي القاسم الحسن ابن علي الخوارزمي.(١)

استمال رضوان(٢) المغاربة في حلب، وكانوا أكثر جند القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعاره، فخطب له على منابر حلب وأعمالها. ثمّ سار رضوان بجيشه إلى الرها، وكان فيها قائد من الروم اسمه «الغار قليط» متحصّناً، فحاصره حصاراً شديداً تمكّن خلاله من احتلال القلعة التي كلف باغيسيان بن محمد بن ألب التركماني صاحب انطاكية بإدارتها.(٣)

أما دقاق بن تتش الذي كان قد حضر مع أبيه الوقعة التي قتل فيها الأخير، فإنه سار مع أخيه رضوان إلى حلب وأقام عنده. فراسله الأمير ساوتكين والي دمشق من قبل تتش سراً يدعوه إليه ليملكه المدينة، فهرب من حلب سراً وجدّ في السير. أرسل أخوه رضوان عدداً من الخيالة لتعقبه، فلم يدركوه. فلما وصل دقاق إلى دمشق ملكها واستوزر أبا القاسم الخوارزمي.(٤)

٤ - استعادة مدينة صور من قبل المستنصر العبيدي

كان المستنصر الفاطمي قد أرسل حملة السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة إلى ساحل بلاد الشام ففتحت عكا وجبيل وصور وغيرها من المدن. وكانت الحملة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٣.
(٢) إلى رضوان ينسب بنو رضوان في شمال بلاد الشام.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٣.

بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالي الذي سلّم صور للأمير منير الدولة الجيوشي.

إلاّ أن الأخير عصى على المستنصر وأمير الجيوش وامتنع في صور، وذلك رغم معارضة أهلها هذا العصيان.

وفي السنة ست وثمانين وأربعمائة سيّر المستنصر حملة كبيرة إلى ساحل الشام لاستعادة صور، وصلت أمام المدينة وحاصرتها وشددت الحصار على حاميتها. ثار أهل المدينة ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش، وسلموا مدينتهم إلى جند مصر الذي هاجمها ودخلها ونهب منها الشيء الكثير وأسر منير الدولة ومن معه من أصحابه، فحملوا إلى مصر حيث قتلوا جميعهم.(١)

٥ - القتال بين بركيارق وخاله اسماعيل بن ياقوتي

إسماعيل بن ياقوتي بن داود هو خال السلطان بركيارق وابن عم السلطان ملكشاه، كان أميراً على اذربيجان حين أرسلت إليه تركان خاتون زوجة ملكشاه تدعوه للزواج منها شرط محاربة بركيارق. أجابها اسماعيل إلى ذلك وجمع جيشاً كبيراً من التركمان وغيرهم، وعزّزته تركان بالقائد كربوقا وغيره من الأمراء في عسكر كثير.

جمع بركيارق جيشه وسار إلى حرب إسماعيل، فالتقى الجيشان عند الكرج حيث جرى قتال عنيف انحاز خلاله أحد أمراء تركان، واسمه «يلبرد»، إلى بركيارق وقاتل إلى جانبه. انهزم إسماعيل وجيشه، فتوجّه إلى اصبهان حيث أكرمته تركان وخطبت له وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود بن ملكشاه.

إلاّ أن أمراء أصبهان، وخاصة الأمير «انز» صاحب الجيش، آثروا خروج إسماعيل من المدينة ففارقها حيث عاد وقتل على يد بعض أمراء بركيارق.(٢)

جرت هذه الأحداث في السنة ست وثمانين وأربعمائة للهجرة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٨.
وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٨٩.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

٦ - الخطبة للسلطان بركيارق في بغداد

كان السلطان بركيارق قد قدم إلى بغداد في أواخر السنة ست وثمانين وأربعمائة للهجرة، فأرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب الخطبة له، فأجيب إلى ذلك وخطب له ولقب «ركن الدولة». وحمل إليه الوزير عميد الدولة بن جهير الخلع.[١]

٧ - وفاة الخليفة المقتدي ومبايعة المستظهر بالخلافة

في السنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبدالله ابن القائم بأمر الله فجأة.[٢]

نقل ابن كثير رواية حول وفاته فكتب:[٣]

«لما قدم السلطان بركيارق بغداد، سأل من الخليفة أن يكتب له بالسلطنة كتاباً فيه العهد إليه فكتب ذلك، وهيئت الخلع وعرضت على الخليفة. وكان الكتاب يوم الجمعة الرابع عشر من المحرم. ثمّ قدم إليه الطعام فتناول منه على العادة وهو في غاية الصحة. ثمّ غسل يده وجلس ينظر في العهد بعد ما وقع عليه، وعنده قهرمانة[٤] تسمى شمس النهار، قالت: فنظر إليّ وقال: «من هؤلاء الأشخاص الذين قد دخلوا علينا بغير إذن؟» قالت: «فالتفت فلم أر أحداً، ورأيته قد تغيّرت حالته واسترخت يداه ورجلاه، وانحلّت قواه، وسقط إلى الأرض». قالت: «فظننت أنه غشي عليه، فحللت أزرار ثيابه فإذا هو لا يجيب داعياً، فأغلقت عليه الباب وخرجت فأعلمت ولي العهد بذلك، وجاء الأمراء ورؤوس الدولة يعزونه بأبيه، ويهنّئونه بالخلافة، فبايعوه».

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٣ - ٩٩٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٠.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) القهرمانة: مدبّرة البيت والمشرفة على شؤون الجواري والنساء فيه.

ولما توفي المقتدي وحضر الوزير، أحضر ابنه أبو العباس أحمد الحاشية فبايعوه ولقّبوه بالمستظهر. وركب الوزير إلى بركيارق وأخذ بيعته للمستظهر.(١)

وكان عمر المقتدي ثمانٍ وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر. وكان وزيره فخر الدولة أبا نصر بن جهير، ثمّ أبا شجاع، ثمّ عميد الدولة أبا منصور بن جهير.

وفي عهده عمرت بغداد أكثر مما كان من قبله وأُنشئت فيها أحياء جديدة. وهو الذي أمر بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد، ومنع إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار لها. كما منع الملاحين عن حمل الرجال والنساء مجتمعين. وقد وصفه ابن الأثير بأنه «كان قوي النفس عظيم الهمّة من رجال بني العباس».(٢) ابن كثير من جهته كتب عنه: «كان غيوراً على حريم الناس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حسن السيرة والسريرة».(٣)

أما المستظهر بالله، فكان عمره لمّا بويع ست عشرة سنة وشهرين.

٨ – وفاة أمير الجيوش الفاطمية بدر الجمالي

وفي السنة نفسها توفي أمير جيوش الخلافة الفاطمية في مصر بدر الجمالي قائد الجيوش بعد ان جاوز الثمانين من عمره. وكان هو الحاكم في دولة المستنصر ومدبّر الممالك الفاطمية، يرجع إليه في كلّ الأمور.(٤)

أصل بدر من الأرمن، من صنائع الدولة في مصر ومواليها. وكان حاجباً لصاحب دمشق، ثمّ سار إلى مصر حيث رقي في

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٩٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٩٤.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٠.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٢.

الولايات إلى أن ولّي عكا، فظهرت منه كفاية ومقدرة. ولما استولى الترك على زمام الأمور في الدولة الفاطمية مع ما سادها من الفساد والتضييق، استقدم الخليفة الفاطمي بدراً لولاية الأمور، فاستأذن في الاستكثار من الجند لقهر من تغلب على جند مصر، فأذن له في ذلك.[1]

وهكذا استردّ بدر السلطة من الترك وتغلّب على أهل النواحي، مثل ابن عمّار في طرابلس، وابن معروف في عسقلان، وبني عقيل في صور. ثمّ استردّ من الأمراء والقواد في مصر كلّ ما أخذوه أيام الفتنة من المستنصر من الأموال والأمتعة.

أكمل ابن خلدون إنجازات القائد بدر الجمالي فكتب:[2]

«وسار إلى دمياط وقد تغلّب عليها جماعة من المفسدين من العرب وغيرهم فأثخن في لَواتَة بالقتل والنهب في الرجال والنساء، وسبى نساءهم، وغنم خيولهم. ثمّ سار إلى جهينة وقد ثاروا ومعهم قوم من بني جعفر فلقيهم على طرخ العليا سنة تسع وستين فهزميم، وأثخن فيهم، وغنم أموالهم. ثمّ سار إلى أسوان وقد تغلّب عليها كنز الدولة محمد فقتله وملكها، وأحسن إلى الرعايا ونظّم حالهم وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، وعادت الدولة إلى أحسن ما كانت عليه».

ولمّا سيطر السلاجقة على مصر السنة تسع وستين وأربعمائة، جمع بدر الجمالي العساكر من العرب وغيرهم وقاتلهم فهزمهم وقتل عدداً كبيراً من جيوشهم. ثمّ جهز بدر الجيوش من مصر مع قائده نصير الدولة، فسار إلى بلاد الشام وحاصر دمشق وضيّق عليها. وكان ملك السلاجقة حينذاك السلطان ملكشاه قد أقطع أخاه تتش السنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام، وما يفتحه منها، فزحف إلى حلب وحاصرها وضيّق عليها. وكانت معه جموع كثيرة من التركمان. لكن أتسز، القائد الفاطمي، سار إليه فقتله تتش وملك دمشق وحلب،

(1) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٤.

(2) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

فاستولى بذلك السلاجقة على كامل بلاد الشام.

حينذاك زحف بدر من مصر بجيش كبير إلى بلاد الشام فحاصر دمشق التي كان تتش يدافع عنها ويمتنع داخلها، فلم يتمكّن بدر من فتحها.

وفي السنة اثنتين وثمانين وأربعمائة زحفت جيوش مصر إلى بلاد الشام فاسترجعت صور من بني عقيل. ثمّ فتحت مدينة صيدا، ثمّ مدينة جبيل، وضبط أمير الجيوش البلاد وولّى عليها العمال. ولما انتفض والي صور منير الجيوشي السنة ست وثمانين وأربعمائة، بعث إليه أمير الجيوش جيشاً كبيراً اقتحم المدينة، بعد أن ثار أهلها على الوالي الجيّوشي، واستولى عليها وأسر الجيّوشي وأصحابه الذين أرسلوا إلى مصر حيث قتلوا جميعهم.[1]

هذه الانجازات العسكرية المميزة جعلت بدر الجمالي يعدّ من كبار القادة المسلمين الذين قادوا الجيوش الفاطمية، العربية منها وغير العربية، من نصر إلى نصر. لذلك أوردنا سيرته في هذا الجزء من الموسوعة.

٩ - وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله

وفي الثامن عشر من ذي الحجة السنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام.[2] وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر، وكان عمره عند وفاته سبعاً وستين سنة.[3]

وكان المستنصر قد عهد بالخلافة بعده إلى ابنه نزار، لكن الأفضل بن بدر الجمالي خلعه بعد موت أبيه وأمر الناس فبايعوا أخاه أحمداً ولقّبه بالمستعلي. هرب نزار إلى الاسكندرية وجمع الناس عليه فبايعوه

---

(١) مقتطفات مأخوذة من ابن الأثير، جزء ٨، وابن كثير، جزء ١٢، وابن خلدون، جزء ٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٢.

(٣) انظر ملحق رقم ٦: سيرة الخليفة المستنصر بالله.

برعاية قاضي الاسكندرية جلال الدين بن عمّار.[1]

قصد الأفضل الاسكندرية وحاصرها وقاتل نزاراً وهزمه وأسره مع القاضي جلال الدين، الذي قتله، فيما سُجن نزار حتى وفاته. واستقرّ المستعلي بالخلافة وعمره إحدى وعشرون سنة.[2]

١٠ - دخول جمع من الترك افريقيا ومعاركهم فيها

كان شاهملك التركي من أولاد أحد الأمراء الأتراك في الشرق الإسلامي. وكان قد ناله في بلده ما اقتضى خروجه منه، فسار إلى مصر في مائة فارس، فأكرمه الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش وأعطاه اقطاعاً ومالاً.[3] وكان ذلك السنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

ثمّ بلغت الأفضل عنه أسباب أوجبت إخراجه من مصر، فخرج هو وجنده منها هاربين بعد أن احتالوا حتى أخذوا سلاحاً وخيلاً، وتوجّهوا إلى المغرب فوصلوا طرابلس الغرب التي كان سكانها يكرهون واليها. أدخلهم سكان طرابلس إليها وأخرجوا الوالي منها وأصبح شاهملك أمير المدينة.[4]

ولمّا علم تميم بن المعز بن باديس أمير افريقيا بذلك، جنّد جيشاً وأرسله إلى طرابلس، فحاصرها وضيّق على المقاتلين الأتراك فيها إلى أن تمكّن من فتحها. واصطحب الجند الأتراك إلى المهدية حيث الحقهم تميم بجنده نظراً إلى ما كانوا يتميّزون به من دقّة في رمي السهام، حتى قيل إنه «لا يخطئ لهم سهم».[5]

لكن شاهملك عاد وغدر بتميم فقبض على ابنه وولي عهده يحيى خلال رحلة صيدٍ واصطحبه إلى مدينة سفاقس، التي كان صاحبها، واسمه حمو، قد خالف على

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٠.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٣.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٠.

تميم. فلما بلغ الخبر تميماً ركب وسيّر العساكر في أثر شاهملك، فلم يدركوه قبل بلوغه سفاقس التي استقبله صاحبها.

ثمّ خاف صاحب سفاقس فأرسل إلى تميم كتاباً يسأله فيه انفاذ الأتراك وأولادهم إليه ليرسل له ابنه يحيى، ففعل بعد امتناع.

وبعد إجراء التبادل، جهّز تميم جيشاً بقيادة يحيى وسيّره إلى سفاقس فحاصرها براً وبحراً مدّة شهرين وضيق على أهلها إلى أن تمكّن من دخولها عنوة بعد ان غادرها الجنود الأتراك إلى قابس فاستقبلهم صاحبها مكّين بن كامل الدهسماني.(١)

جمع مكّين أمير قابس جيشاً وسار إلى سفاقس مع شاهملك وجنده بقصد احتلالها. لكن تميماً صاحب افريقيا جرّد إليها جيشاً كبيراً فتراجع مكين عنها بجنده وقصد المهدية التي كان يدافع عنها يحيى بن تميم. جرى قتال بين الجيش المهاجم وجيش يحيى ارتدّ اثره المهاجمون عن مدينة المهدية من دون أن يتمكّنوا من فتحها.(٢)

١١ - الفتنة في نيسابور

في السنة ثمان وثمانين وأربعمائة جمع أمير كبير من أمراء خراسان جمعاً كبيراً وسار بهم إلى نيسابور فحاصرها، فاجتمع أهلها وجندها وقاتلوه أشدّ قتال.

دام الحصار أربعين يوماً من دون أي نتيجة بسبب مقاومة أهل نيسابور القوية، ما أدى إلى تراجع الأمير عن حصارها في السنة التالية. فلما فارقها وقعت الفتنة فيها بين أهلها وفرقة الكرامية، وجرى قتال عنيف وقع خلاله قتلى كثيرون. وكان مقدم الكرامية محممشاد، فيما كان مقدم الشافعية(٣) من الأهالي أبا القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ومقدم الحنفية(٤) القاضي محمد بن أحمد بن صاعد.

وبنتيجة القتال خربت مدارس الشافعية والحنفية وقتل كثير من تلامذتها.(٥)

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الشافعية نسبة إلى الإمام الشافعي.

(٤) الحنفية نسبة إلى الإمام الحنفي ابن حنيفة.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٠٦.

ملحق رقم ٦

سيرة المستنصر بالله الفاطمي

كتب ابن الأثير:[١]

«في هذه السنة[٢] ثامن عشر ذي الحجة توفي المستنصر بالله أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام، وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر، وكان عمره سبعاً وستين سنة وهو الذي خطب له البساسيري في بغداد. وكان الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية قد قصده في زي تاجر واجتمع به وخاطبه في إقامة الدعوة له ببلاد العجم، فعاد ودعا الناس إليه سراً ثمّ أظهرها وملك القلاع. وقال للمستنصر: «من إمامي بعدك؟» فقال: «ابني نزار»، وهو أكبر أولاده. والاسماعيلية إلى يومنا هذا يقولون بإمامة نزار.

ولقي المستنصر شدائد وأهوالاً، وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر أخرج فيها أمواله وذخائره إلى أن بقي لا يملك غير سجادته التي يجلس عليها، وهو مع هذا صابر غير خاشع. ولما مات ولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي بالله ومولده في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة. وكان قد عهد في حياته بالخلافة لابنه فخلعه الأفضل وبايع المستعلي بالله، وسبب خلعه أن الأفضل ركب مرة أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ونزار خارج والمجاز مظلم فلم يره الأفضل. فصاح به نزار: «انزل يا أرمني كلب عن الفرس ما

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٢) سنة ٤٨٨ هـ.

أقل أدبك»، فحقد عليه. فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه وبايع المستعلي. فهرب نزار إلى الإسكندرية وبها ناصر الدولة أفتكين فبايعه أهل الاسكندرية وسموه المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الأفضل. وأعانه أيضاً القاضي جلال الدولة ابن عمار قاضي الإسكندرية، فسار إليه الأفضل وحاصره بالإسكندرية فعاد عنه مقهوراً. ثمّ ازداد عسكراً وسار إليه فحصره وأخذه وأخذ أفتكين فقتله وتسلّم المستعلي نزاراً فبنى عليه حائطاً فمات وقتل القاضي جلال الدولة بن عمار ومن أعانه».

ملحق رقم ٧

سيرة تتش بن ألب إرسلان

كتب ابن كثير:[١]

«تاج الدولة بن ألب أرسلان صاحب دمشق وغيرها من البلاد، وقد تزوّج امرأة علي ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه، ولكن قدر الله وماتت، وقد قال المتنبي:

وَلله سِــــرٌّ في عُـــلاكَ وَإنَّــــمـــا
كَـلامُ الـعِـدَى ضَـرْبٌ مِـنَ الـهَـذَيانِ

قال ابن خلكان: كان صاحب البلاد الشرقية فاستنجده أتسز في محاربة أمير الجيوش من جهة صاحب مصر. فلما قدم دمشق لنجدته وخرج إليه أتسز، أمر بمسكه وقتله، واستحوذ هو على دمشق وأعمالها في سنة إحدى وسبعين، ثمّ حارب أتسز فقتله. ثمّ تحارب هو وأخوه بركيارق ببلاد الري، فكسره أخوه وقتل هو في المعركة، وتملّك ابنه رضوان حلب، وإليه تنسب بنو رضوان بها. وكان ملكه عليها إلى سنة سبع وخمسين وخمسمائة. سمّته أمه في عنقود عنب، فقام من بعده ولده تاج الملك بوري أربع سنين، ثمّ ابنه الآخر شمس الملك إسماعيل ثلاث سنين، ثمّ قتلته أمه أيضاً، وهي زمرد خاتون بنت جاولي، وأجلست أخاه شهاب الدين محمود بن بوري، فمكث أربع سنين. ثمّ ملك أخوه محمد بن بوري طغركين سنة. ثمّ تملك مجير الدين بن أبق من سنة أربع وثلاثين إلى أن انتزع الملك منه نور الدين محمود زنكي. وكان أتابك العساكر بدمشق أيام أتق معين الدين، الذي تنسب إليه المعينية بالغور، والمدرسة المعينية بدمشق رحمه الله».

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٣ - ١٦٤.

ملحق رقم ٨

سيرة القائد آقسنقر الأتابك

كتب ابن كثير:[١]

«الملقب قسيم الدولة السلجوقي، ويعرف بالحاجب، صاحب حلب وديار بكر والجزيرة. وهو جد الملك نور الدين الشهيد ابن زنكي بن أقسنقر. كان أولاً من أخص أصحاب السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، ثمّ ترقت منزلته عنده حتى أعطاه حلب وأعمالها بإشارة الوزير نظام الملك. وكان من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة، وكانت الرعية معه في أمن ورخص وعدل. ثمّ كان موته على يد السلطان تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وذلك أنه استعان به وبصاحب حران والرها على قتال ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه، ففرّا عنه وتركاه، فهرب إلى دمشق. فلما تمكّن ورجعا قاتلهما بباب حلب فقتلهما وأخذ بلادهما إلاّ حلب فإنها استقرّت لولد أقسنقر زنكي فيما بعد، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة. وذكر ابن خلكان أنه كان مملوكاً للسلطان ملكشاه، هو وبوزان صاحب الرها، فلما ملك تتش حلب استنابه بها فعصى عليه فقصده وكان قد ملك دمشق أيضاً فقاتله فقتله في هذه السنة[٢] في جمادى الأولى منها. فلما قُتل دفنه ولده عماد الدين زنكي، وهو أبو نور الدين، فقبره بحلب أدخله ولده إليها من فوق السور، فدفنه بها».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦١.

(٢) سنة ٤٨٧هـ.

خلاصة:

وهكذا بدا، في هذه الحقبة من التاريخ العسكري الإسلامي، أن سيطرة السلاجقة على مقاليد الخلافة العباسية بدأت بالتراجع، تمهيداً للسقوط النهائي وتحوّل السيطرة إلى قوّة إسلامية جديدة هي آل زنكي. فبعد أن تولى الحكم في الدولة السلجوقية، بعد وفاة السلطان طغرلبك، ابن أخيه عضد الدولة ألب ارسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ)، كان أول عمل قام به هو الاستيلاء على حلب وشمال بلاد الشام كي يحمي ظهره من الخطر الفاطمي، تمهيداً لتوجهه إلى محاربة الامبراطورية البيزنطية، التي كانت قد واصلت شن الحملات على شمال بلاد الشام مسيطرة بذلك على بعض الثغور الاسلامية فيها. وبالفعل تمكّن ألب ارسلان من أن ينتزع من محمود بن صالح ابن مرداس أمير حلب، الاعتراف بسلطانه والخطبة له وللخليفة القائم بأمر الله.

بعد ذلك، انتدب ألب ارسلان أحد الأمراء الأتراك، واسمه أتسز بن واق، إلى جنوب بلاد الشام ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورهما من البلاد، من دون أن يتمكّن من دخول عسقلان رغم حصاره الشديد لها وقطع الغذاء والماء عنها. وهكذا بقيت فلسطين الجنوبية خاضعة للخلافة الفاطمية.

والملاحظ ان السلطنة السلجوقية تمكّنت خلال حكم طغرلبك وألب ارسلان من نقل حدود التماس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من شمال بلاد الشام إلى جنوبها، مسيطرة بذلك على الجزء الأكبر من هذه البلاد. وقد عرفت هذه المرحلة بالعصر الذهبي للسلطنة السلجوقية.

بعد سيطرته على بلاد الشام إتجه السلطان ألب ارسلان لمحاربة الامبراطورية البيزنطية، وبدأ بصدّ هجوم امبراطورها رومانوس الذي كان قد اتجه إلى الثغور الإسلامية الشامية لمهاجمتها على رأس مائة ألف مقاتل. وبالفعل انتصر ألب ارسلان على الإمبراطور في معركة ملازكرت على الفرات الأعلى شمالي بحيرة ڤان، حيث اشتبك الجيشان في قتال ضارٍ أسفر عن سقوط العديد من القتلى في الجانبين، ووقوع الإمبراطور البيزنطي أسيراً. لكن السلطان

أفرج عنه بشروط سبق الحديث عنها في هذا الجزء من الموسوعة.

بعد معركة ملازكرت أصبحت الطريق مفتوحة أمام المسلمين للتوسع في آسيا الصغرى وتأسيس دولة سلاجقة الروم من قبل سليمان بن قطلمش. وكانت هذه المعركة من الأسباب التي دفعت إلى قيام الحروب الصليبية، إذ تنادت الشعوب الأوروبية إلى مدّ يد العون للامبراطورية البيزنطية في مشروع محاربة السلاجقة المسلمين.

خلف السلطان الكبير ألب ارسلان ابنه ملكشاه في حكم الدولة السلجوقية، فواصل الحرب ضد الخلافة الفاطمية في بلاد الشام. واستولى على دمشق، وعيّن أخاه تتش ملكاً على بلاد الشام بعد صراع طويل معه، فراح يتوارثها ابناؤه وأحفاده. وبذلك تأسست، بعد دولة سلاجقة الروم، دولة سلاجقة الشام التي انتزعت من النفوذ الفاطمي.

وفي عهد السلطان ملكشاه كثرت الفتن الداخلية والحروب بين الفرقاء المسلمين أنفسهم، الأمر الذي ألهى المسلمين عن متابعة الجهاد ضد الإمبراطورية البيزنطية.

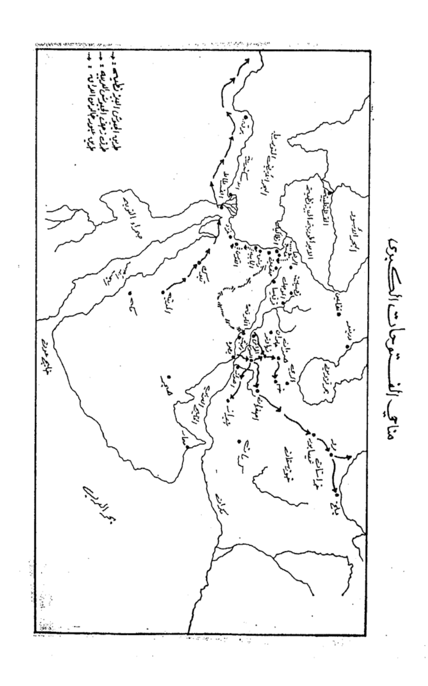
فقد شقّ تتش بن ألب ارسلان عصا الطاعة على شقيقه السلطان ملكشاه مرات عدّة، فاستولى بالقوّة على دمشق وعلى حلب التي عاد السلطان ملكشاه وملكها. كما ثار على ملكشاه وملكها. وثار أيضاً على ملكشاه عمه قاروت بك، كذلك أهل حرّان وسليمان بن قطلمش الذي استولى على انطاكية وأقام دولة سلاجقة الروم.

علاوة على ذلك خاض السلطان ملكشاه صراعات مع فخر الدولة ابن جُهير وابن مروان ومع سمرقند وبلاد ما وراء النهر. كما اضطرّ إلى التدخّل مرات عدّة في داخل بغداد بسبب الفتن الداخلية التي كانت تجري فيها.

بعد وفاة السلطان ملكشاه ووزيره الكبير نظام الملك اختلف إبناه محمود وبركيارق على السيطرة والتفرّد بالحكم. كما اضطر بركيارق إلى خوض صراع طويل مع عمه تتش ومع اخوته ومع خاله اسماعيل بن ياقوتي. كلّ هذه الخلافات الداخلية ساهمت في بداية تقهقر السيطرة السلجوقية على مقاليد الخلافة العباسية والتمهيد لظهور سلالة إسلامية جديدة أقامت دولة

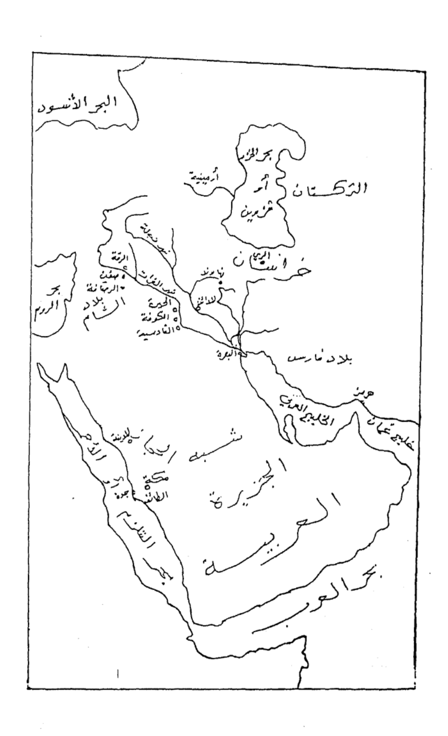
آل زنكي. وتابعت هذه الأخيرة حماية الخلافة العباسية ورعاية شؤون الشعوب الإسلامية في المشرق العربي، والصراع ضد خطر جديد كان قد بدأ في الظهور في أفق آسيا الصغرى، قادماً من اوروبا، متمثلاً بالحملات الصليبية على الشرق.

هذه المرحلة التمهيدية لانتهاء عهد السيطرة السلجوقية وبداية سيطرة دولة أتابكة آل زنكي في الموصل لمؤسّسها الأمير عماد الدين زنكي ستعالج في الجزء التالي من هذه الموسوعة.



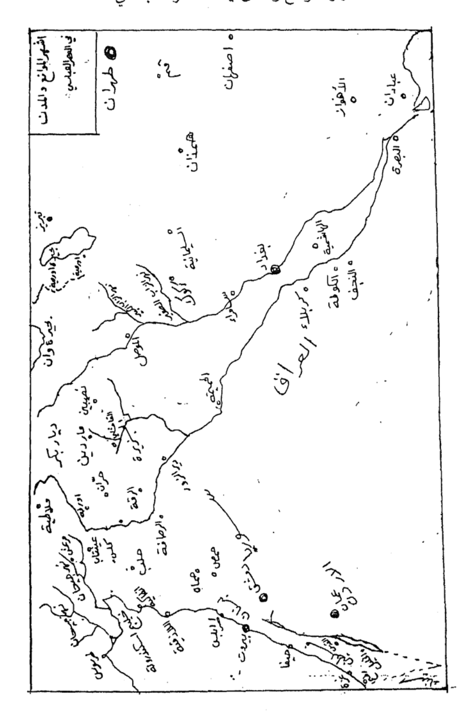
مناطق الفتوحات الكبرى

منطقة العمليات

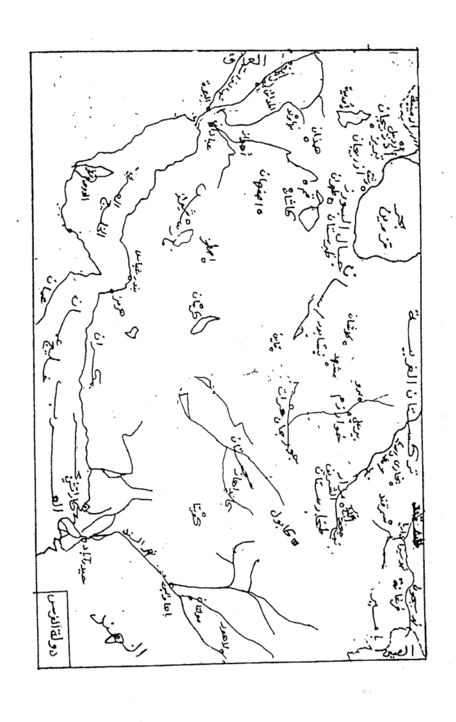


منطقة العمليات

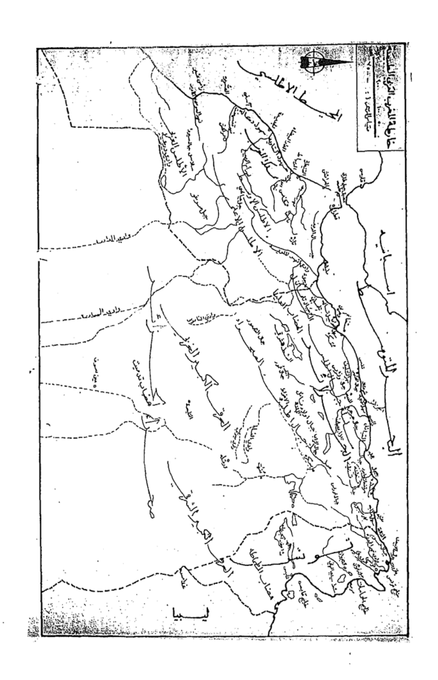
أشهر المواقع والمدن في العصر العباسي



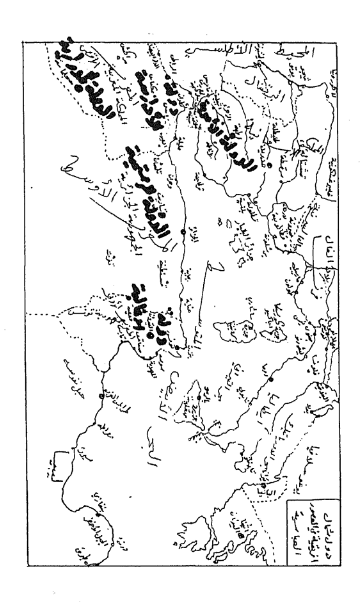
دولة الفرس



خارطة المغرب العربي الطبيعية



دول شمال افريقية في العصور العباسية



فهرس الجزء (١٣)

الخرائط:

